رضوان نصّار

كأسٌ من الغضب

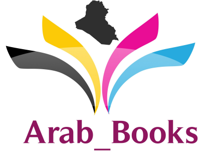
ترجمة: محمد مصطفى الجاروش

منشورات الجمل

رواية

رضوان نصّار: **كأسٌ من الغضب**




Arab_Books

رضوان نصّار

كأسٌ من الغضب

ترجمة: محمد مصطفى الجاروش

منشورات الجمل



The translation of this book was made as part of the work "Sósia" [double], 2016, from the artist Rayyane Tabet, commissioned by Fundação Bienal de São Paulo for the 32ª Bienal.

A tradução deste livro foi realizada como parte da obra *Sósia*, 2016, do artista Rayyane Tabet, comissionada pela Fundação Bienal de São Paulo for the 32ª Bienal.

Raduan Nassar: *Um Copo de Colera*, 1978.

رضوان نصّار: **كاسٌ من الغضب**، الطبعة الأولى
ترجمة: محمد مصطفى الجاروش
مراجعة: صفاء جبران

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



«لا أحد يهدي الذي أضلَّه اللّه».

«أوصانا! ها هو الذَّكَر قد أتى! النرجسي!
دائمًا ناءٍ وهشّ، وليد الفوضوية».



الوُصول

ولمّا وصلتُ ظُهرًا إلى بيتي في المزرعة هناك عند الكيلومتر ٢٧ من طريق المُرور السريع، كانت تنتظرني مُنذ فترةٍ وهي تتنقّل في النجيلة، فجاءت تفتح البوابة لكي أدخل بالسيارة، وما إن دخلتُ حتى خرجتُ من الكراج وصعدنا معًا السلّم المؤدّي إلى السطيحة، وحالمَا دخلنا فتحتُ ستائر الوسط وجلسنا على كراسي الصفصاف موجّهين أعيننا إلى أعلى الطرف المُقابل حيث تغرب الشمس، وكنّا كلانا صامتَين إذ سألتني «ما بك؟»، لكنّي، لشدّة شُرودي، لم أزل بعيدًا وصامِتًا، أفكاري منطلقة في حُمرة الغروب، وإنَّما أجبتُ لإصرار السؤال بسؤال «هل تعشيتِ؟»، وبِما أنَّها قالتْ «فيما بعد» فقد قمتُ وذهبتُ مِن غير عجلٍ إلى المطبخ (جاءتْ هي ورائي)، وأخرجتُ حبة طماطم من الثلاجة ثم سرتُ نحوَ الحوض وغسلتُها قليلًا فتناولتُ المملحة مِن الخِزانة ثمَّ جلستُ إلى الطاولة (وفي الناحية المُقابلة كانت هي تترقّب كُلَّ حَركةٍ مِن حركاتي، بيد أنّي



تغافلتُ مُتظاهرًا بِعدم انتباهي إلى ذلك)، وهكذا تحت مِرصادها المُستمرّ أخذتُ آكل الطماطم، واضِعًا شيئًا فشيئًا الملحَ على ما يتبقّى منه في يدي، مُبْديًا جهدًا مُصطنعًا في كلّ قضمةٍ أقضمها لِكَي تبرز أسناني القوية كأسنان الحصان، ومُدركًا أنَّ عينيها لا تتحوَّلان عن فمي، ومُدركًا أنها خلف صمتها كانتْ تتشنَّج جزعًا، ومدركًا قبل كل شيءٍ أنَّ رغبتها فيّ تزداد بقدر ما أبدو لها غيرَ مبالٍ بها، وإنَّما أدرك أني عندما انتهيتُ من أكل الطماطم تركتُها في المطبخ وخرجتُ لأجلب جهاز الراديو الذي كان على رفّ مكتبة حجرة الجلوس، وقبل الرجوع إلى المطبخ التقينا في الممرّ ودون أن ننبس بِكلمةٍ دخلنا معًا تقريبًا إلى شبه ظُلمة غرفة النوم.



في السرير

وخلال لحيظات في الغرفة بَدَوْنا غريبَيْن يراقبهما شخصٌ ثالثٌ، وهذا الثالث كان دائمًا أنا وهي، ويتعيَّن على الاثنين أن يترصّدا جيدًا ما أقوم به أنا وليس ما تقوم به هي، ولذلك جلستُ على حافة السرير وشرعتُ أخلع حذائي وجوربي بهدوء، داعكًا رجليّ الحافيتين بيدي وحاسًا رطوبتهما بلذة كأنهما قد قُطفتا من الأرض في تلك اللحظة، ثم أخذتُ، بهدفٍ مرسومٍ، أتجول على الأرضية الخشبية، مُتَصَنِّعًا ذرائعَ تافهةً لتجوالي هذا في الغرفة، تاركًا رِجلَي بنطلوني تمسّان الأرضَ بخفّةٍ وفي الوقت ذاته تغطيان رجليّ جزئيًا بشيءٍ من السرِّية، وإني لعارفٌ أنهما، بعُريهما وبياضهما الشديد، تتضمنان بقوة عُريي المسبق، وسرعان ما سمعتُ شهيقَها العميق هناك جنبَ الكرسي حيث كان لَرُبَّمَا يعتريها القنوط، مضطربة عندَ خلع ملابسها، شابكة كذلك أناملها في الحمّالة التي تجري على ذراعيها، بينما أنا بتظاهري المستمرّ كنتُ مدركًا أن في كلّ



ذلك لَصِدقًا، إذ إني أعلم حقَّ العلم كوابيسَها الهاجسية بالأرجل، أيّ أرجلٍ، وعلى الأخصّ رجليّ الرصينتَي البنية كأنهما نُحِتتا نَحْتًا، مع شيءٍ من التعقّدات في الأصابع، فضلًا عن العلامات المتوتّرة التي ترسمها عروقُهما وأوتادُهما على وجهيهما، ولكن دون أن تفقدا سمة الجذور الخجولة، وكان ذهابي وإيابي بخطواتٍ مدروسةٍ، فأُطيل الانتظارَ في كلِّ حينٍ لأبسط الذرائع، ولكن ما إن تركَت الغرفة ودخلتْ لبرهةٍ إلى الحمّام حتى خلعتُ بسرعة بنطلوني وقميصي وارتميتُ على السرير وانتظرتُها منتصبًا جاهزًا، متمتِّعًا بصمتٍ بملمس النسيج القطني للملاءة التي تغطّيني، وعلى التو أغمضتُ عينيَّ متفكرًا بالحيل التي سوف أستخدمها (وما أكثر ما أعرفه من الحيل)، وبهذا رحتُ أُراجع في دماغي، وحيدًا، الأشياءَ التي كنّا نقوم بها، وكيف كانت ترتعش لحركات فمي الأولية وللوميض الذي أصطنعه في عينيّ، حيثُ كنتُ أُبرز أقذر وأحطّ ما فيَّ، عارفًا أنها - وقد خلبتْها صورتي العكسية هذه - كانت لتصيح دائِمًا «هذا هو الوغد الذي أُحبه!»، فراجعتُ في رأسي هذا المشهد الآخر والتافه للعبتنا، مع أنه تمهيدٌ لحبكاتٍ لاحقةٍ غيرِ متوقعةٍ وضرورةٌ - بقدر ما هو ضروريٌّ التحريكُ، بدايةً، للبيدق البائس على رقعة الشطرنج -، عندما كنت أُطبِقُ يدي على يدها وألمّ أناملها مؤثرًا فيها



الشجاعة ودافعًا بها، تحت قيادتي، إلى شعر صدري، حَتَّى تُمارس بِذاتها، تيمُّنًا بأناملي أنا تحت الملاءة، نشاطًا خفيًّا بديعًا، أو، في مرحلةٍ متطورةٍ، بعد البحث الشديد العناية في شَعرِنا والحبوب التي على جلودنا وروائحنا الكثيرة، عندما كنَّا كلانا راكعَين نقيس الطريق الأطول لِقُبلة متفردة، أكفُّنا ملتصقة وأذرعنا منفتحة في وضع صليب تقريبًا، وأسناننا عاضّة فمَ الآخر كأنَّها تعضّ لحمَ القلبِ الطريَّ، وبعينيّ المغمضتين أطلقتُ سراح الخيال في تموّجات هذا الامتطاء، رأيتُني كذلك عالِقًا ببعض المُمارسات، إمّا عندما أُلَبِّي، بنشوة وقبل الأوان، إحدى أغرب نزواتها (ونزواتي)، بعد شبه نُهوضي، ظافِرًا مُظَفَّرًا، من سرج بطنها، قاذفًا من خلال بخاتٍ مفاجئةٍ وعنيفةٍ المادَّةَ اللزجةَ واللبنيةَ التي تلتصق ببشرة وجهها وببشرة ثدييها، وإمَّا تلك النزوة الأُخرى، الأقلّ جُموحًا والأبطأ نضجًا، فتنمو ثمرتها في تصاعدٍ صامتٍ وصبورٍ بِتشنُّجاتٍ قويةٍ، وفي تلك اللحظة، وأنا في داخلها، والاثنان بدون حراكٍ، نصِل معًا بين صيحات ساخطة إلى حشرجات النشوة القصوى، وفكّرتُ أيْضًا في طفرة العكس الخطيرة، عندما تستلقي على وجهها وتعرض عليّ بسخاءٍ مرعىً آخر، فكانت ذراعاي ويداي، بشكل متناسق وشبه آلي، تمسكان بكتفيها من تحت، ضاغطة على كلِّ المساحات الملتصقة لجسدينا

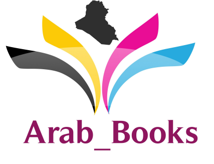


وضابطة لها، وأُفكّر دومًا في يديّ ذاتي الظهرين العريضين واللتين كثيرًا ما تُستعملان في كلٍّ هذه الهندسة الغرامية المصمَّمة بمقدارٍ من الجودة بحيث تؤدّي بها إلى أن تقول حتمًا «عظيم، عظيم، إنك متميز!»، ومن هنا انطلقتُ متفكِّرًا في لحظات التجديد، في السجائر التي نُدخِّنها متابعين كلَّ فقاعةٍ مسمومةٍ بالسكوت، إن لم يكن على مجرى الأحاديث ونحن نشرب قهوة الترمس (بعد أن نهرب عريانين من السرير لندنِّس طاولةَ المطبخ)، وخلالَها تُحاول أن تشرح لي تجربتها المضطربة في هزّة الجماع، مشيرةً دائِمًا إلى ثِقتي بنفسي وجرأتي في قيادة هذه الطقوس، مخفيةً بالكاد دهشتها من تشبُّثي بإدراج اسم الله في أقوالي الفاحشة، ومشيرةً خاصَّةً إلى الكم الذي علَّمتُها إياه، لا سيما الوعي بالنسبة إلى الفعل الجنسي من خلال أعيننا التي طالَما تابعتْ، حصى تلو الحصى، كل مقاطع تلك الطريق المختلجة، وآنذاك أحدِّثها عن ذكائها الذي كثيرًا ما أشدتُ به كأفضل صفاتها في السرير، ذكاء نشط وفعّال (ولو تحت حوافزي فقط)، متفتِّحٌ بشكل استثنائي على جميع الغارات، ثم أسترسل متحدِّثًا أخيرًا عن نفسي كذلك، سالبًا لُبَّها بالتناقضات المتعمّدة لسجيَّتي (مع أن البعض منها ليس على هذا القدر من التعمُّد)، وأعلِّمها، من بين خرافات أُخرى، أنني أنا الوغد نقيٌّ عفيفٌ، وهناك، وعيناي ما زالتا



مغمضتين، أفكّر أيْضًا في أشياء أُخرى كثيرةٍ بينما هي لم تصل، إذ إن الخيال شديد السرعة أو قل إنّ جريان زمنه مختلفٌ، لأنه يعمل ويخلط بشكل متزامن أشياءَ متباينةً وغيرَ متوقعةٍ، ثمّ إني استشعرتُ بخُطاها عائدةً في الممرّ، فما كان لي من الوقت إلَّا أنْ أفتحَ عينيّ لأتفقَّد ما إذا كان وضعُ رِجليّ البارزتين من الملاءة صحيحًا، فتأكدتُ كالعادة من أن الشَّعْرَ الكستنائي الذي ينبتُ على ظهرها وفي أطول أصابعهما يُعطيهما في الوقت نفسه خِفَّةً وخُطورةً، إلا أنني سُرعان ما أغمضتُ عينيّ ثانيةً، حاسًّا أنها داخلةٌ إلى الغرفة وقد حزرتُ أن شبحَها المضطرمَ يقترب، ولإدراكي المسبق لكيفية بداية الأُمور، أعني: إنها على مهل، على مهلٍ جدًّا، ستقترب أولًا من رجليّ اللتين قارنتْهما ذات يومٍ بزنبقتين بيضاوين.





اليقظة

كانت الخامسة والنصف فجرًا عندما قلتُ لها «سأقفز من السرير»، إلا أنها تشبثت فيّ كالنبات المتسلّق، مُطبِقةً مخالبَها عليّ أينما تمكّنتْ، وكانت تملك مخالب اليدين ومخالب الرجلين، وعلى كل جسدها مادةٌ لزجةٌ سميكةٌ وذاتُ رائحة قوية، وبما أننا كدنا نشتبك قلتُ «اتركيني يا متسلِّقتي الصغيرة»، مُدركًا أنها تُحبّ أن أُخاطبها بهذا الأُسلوب، إذ قالتْ لي تعويضًا، متظاهرةً بشيءٍ من الوقار، «لن أتركك، يا سروي المنتصب الخطير»، متباهيةً بعينيها لكونها استخرجتْ هذا الأثر البارع من جوابها (مع أنها ليستْ خبيرةً في أُمور علم النبات، وأقلّ خبرةً في أشكال الأشجار المخروطية، فالقليل الذي كانتْ تجترئ به عن النبات لم تتعلمه إلا منّي)، وبما أني أعلم أنه لا غصن ولا جذع، مهما كانت قوتهما، يقاومان هجومات زاحفةٍ، إنما أعلم أنني تَقَلَّعْتُ عنها ما دام الوقت مُتاحًا وتهرَّبتُ مُسرعًا نحوَ النافذة رافعًا للتو الستارة المعدنية، فاستقبلتُ بجسدي



الذي ما زال ساخنًا الهواءَ الباردَ والرطبَ الذي أخذ يدخل الغرفة، ومع ذلك انحنيتُ على حافة النافذة متأنيًا فرأيتُ الصباح في الخارج يتمطّط بصعوبة تحت ثقل الضّباب الكثيف، كما أني تنبّهتُ إلى صُغْرَيات زهور الحديقة في الأسفل، وكأنها مجرّد مسوّدات لكونها لم يكتمل نبتها، تنقشع بصعوبة من تحت لطخات الدخان، وبينما أنا هكذا عند النافذة وعيناي الآنَ مُتَّجِهتان إلى قمَّة الربوة أمامي، حيثُ كان يظهر المعهدُ اللاهوتي غامِضًا وسط كلّ ذلك الضّباب، وإذا بِها تجيء مِن خلفي وتتشابك بي ثانيةً، مقيدةً بمهارةٍ حبلَ ذِراعيها حولَ عُنقي، ولكنّي بِرفقٍ، وباستخدام خفيفٍ لمرفقيّ، ضاغِطًا قليلًا ثدييها المتينينِ، استطعتُ أَنْ أتقاسم معها السِّجنَ المفروضَ عليَّ، وجنبًا إلى جنبٍ أخذنا، ونحنُ متشابكان، نشبك خُطانا شيئًا فشيئًا، وهكذا سِرنا مُباشرةً إلى الحمّام.



الاستحمام

تحت الدش كنتُ أتركُ يديها تتزلقان على جسدي، ويداها لا تكلّان، فتجريان متفحّصتين بالمزيد من الرغوة، تذهبان وتعودان من غير راحةٍ، وجسدانا المبلّلان يلتصقان من حين لآخر لكي تطول يداها ظهري بعناقٍ، فيطيب لي كلُّ هذا الحراك المبهم والمتمعِّج، مُحدِثًا فيَّ رجّاتٍ مُفاجئةً وعميقةً، وكنت أرى تينك اليدين وقد أخذتا تتغلغلان في أنحائي الأكثر غموضًا - منقِّبتين كذلك الزغب الذي نبت على الوصلة غير المخاطة بانتظام في أعلى الفخذين (ومتفحصتان خلسةً حزمة ذكري المصوبنة) - فقلتُ «غسِّلي رأسي، فإني مستعجلٌ على ذلك»، وعندئذٍ، بعد أن أخرجتْني مِن حوض الدش، سرعان ما دخلتْ يداها خَلَلَ شعر رأسي، ضاغطتين بأناملهما بحزم، مدلِّكتين جلدي بأظافرهما، داعكتين رقبتي بطريقة تُجنِّنني حتى النُّخاع، ولكني لم أقلْ شيئًا، واكتفيتُ بتحسس الرغوة وهي تزداد نعومة في أعلى رأسي ثم تتساقط على وجهي



بضجَّةٍ، ناخزةً عينيّ عند النزول، مما يجعلني أفركهما كالوحش بعقد أصابعي، رغم إدراكي أن حرقتهما هذه تُعلن صراحةً عن نظافتي، ولم تتأخر حتى شدّتني من جديد إلى تحت الدش، فشرعتْ أناملها بِحبْكِ خصلات من شَعْري مع المطر الساخن النازل فوقي، ثم بدأ ضجيج الرغوة الغليظة والمُتدفّقة وهي تتفجر على الخزف مع الماء الذي يجري صاخِبًا إلى البالوعة، فتضحك وتضحك، بينما أنا صامت تمامًا ومسلّم نفسي لعنايتها، دون أن أُحرِّك ساكنًا، لكي تقوم وحدها بهذا العمل، وبعد إزالة الصابون كلّيا عن جسدي، انحرفتْ عن حدود المهِمَّة وزلقت فمها الرطب على بشرتي المبلَّلة، إلّا أني أمسكتُ بزمام الردع وتظاهرتُ بأن لا شيءَ يشوّش على الطقوس، وما إن أقفلتْ محبس الدش حتى تركتُ نفسي أنقاد صامتًا إلى خارج كُشْك الاستحمام، ثم أخذتُ أنتظر، وأنا موصولٌ بتيارٍ مِن الرعشات العابرة، حتى رمتْ على رأسي منشفة عريضةً، وسرعان ما اعتنتْ بتجفيف شعري بحركات دقيقة رقيقة بحيث هيّجت ذاكرتي، ولمحتُ للحظاتٍ، بعينين مخفيتين، قدميها تكبران عند دخولهما في الشبشب الكبير رغم صغرهما وحفائهما، كما أني شعرتُ بيديها الممشوقتين تتحوّلان فجأةً إلى يدين خَشنتين وثقيلتين، وهما اللتان تتغلغلان بأناملهما الدقيقة في أذنيّ وتغمرانني بالملامسات



وتدغدغانني وتُضْحكانني ضحكاتٍ خافتةً من تحت المنشفة، وكان غايةً في الطيبة أن تعتني بجسدي وتقودني ملفوفًا إلى الغرفة وتمشّط شعري أمام المرآة وتؤنّبني بِجبينٍ مُتظاهرٍ وتُعطيني إرشاداتٍ طفيفةً وتُلبسني البنطلون والقميص وتلقيني على ظهري في السرير ثم تنبطح عليّ كي تزرّر ملابسي وتجعلني أمدّ حذائي الثقيل على حضنها كي تستطيع ربطَه منحنيةً وبِبالغٍ مِن الدأب، إنّما أُدرك أنني كنتُ أستسلم بأكملي ليديها كي يكون استخدامُها لجسدي كامِلًا.




Arab_Books

الإفطار

كانت تفوح منا رائحة طازجة عندما دخلنا إلى السطيحة حيث كانت حقيبتها لا تزال مفتوحة على الطاولة، وبينما جَلَستْ على أحد كراسي الصفصاف أخذتُ أفتح من الستائر ما يحتاج إلى الفتح، وضغطتُ أنفي على الزجاج مختفيًا شيئًا ما وراء أحد الأعمدة فتمكَّنتُ أن ألمح في الأسفل، رغم الضباب، الستّ ماريانا جالسة القرفصاء إلى جانب أحد مدرجات المبقلة، يداها على التراب والمرشّة إلى جانبها، تتلصّص من حينٍ الى آخر، وبحذرٍ، نحو الزجاج العالي في السطيحة، فخرجتُ عندئذٍ إلى صحن السلَّم حيث قبضتْ يداي على خزف الجدار المنخفض وناديت باسمها طالبًا الإفطار، إلا أني سرعان ما عدتُ إلى بؤرة عينيها، رأسها الملقى على خديدية الكرسي، بشرتها وردية وناعمة، وتنهيدة قصيرة وكثيفة كأنها تقول «لم أحصل على الكثير بل على الكافي» (وهذا ما كانت تقوله لي دائمًا)، ودون أن أنبس بكلمةٍ انحنيتُ على خشبة الطاولة



وأزحتُ حقيبتها الجلدية ومنافضي الحديدية الثقيلة إلى ركن منها، وفي هذه اللحظة دخلَت الستّ ماريانا بهيئتها الخلاسية البروتستانتية، على بشرتها بقع شهباء بائخة، وبنظارتين سميكتي العدستين، وسلّمت علينا باستحياء كالعادة، لكني من غير أن أكترث لخجلها طلبتُ على الفور «الإفطار»، وهي تدرك تمامًا، من نبرتي، ماذا أعني بهذا، كما تدرك تمام الإدراك في أي الأيام يجب عليها أن تقوم بتقديمه كاملًا (سريري الواسع غير المرتب بشكل دائم تقريبًا)، ولذلك أسرعتْ بحياءٍ نحو المطبخ، بينما أنا في السطيحة فتحتُ زجاج النافذة الأوسط ثم جلبتُ كرسيًا وجلستُ جنب الفتحة، عيناي معلقتان في المنظر غير الواضح أمامي، فشرعتُ أُفكّر، تقريبًا بِحرصٍ، فيما يمكن أن يمرّ في رأس الستّ ماريانا المليء بالطهارات، ثم استنتجتُ كالعادة «طز! في اضطرابك يا ستّ ماريانا، طز! في قلّة تفهُّمك، يا ستّ ماريانا، نعم، دائمًا نفس السرير المشرّع، إلّا أن طز في كل ما تفكرين!»، وأخذتُ أنبش بالحصباء التي ها هنا في داخلي (وفي الحقيقة، أتمرَّن على سحر طرد الأرواح الشريرة)، وحارسة البيت كانت قد مدَّت على الطاولة الغطاء ذا المربعات، وفوقه قد وضعت الآنية الفخارية ومرطبان العسل ووعاء الفواكه وسلة الخبز وصحن الزبدة، بالإضافة إلى الوعاء الطيني وفيه الأُقحوان



والسرخس، ثم إن الستّ ماريانا، دائمًا دون أن توجّه نظرها إلينا، كانت تعود إلى المطبخ ربَّما أكثر اطمئنانًا، ففي السطيحة لم نسمع إلا القرقعة الفرحة لألومينيوم الطناجر، وحسبتُ أنه مِن الجيد أن يكون الأمر كذلك تمامًا، ثم إنها سألتني «ما بِكَ؟»، إلّا أني، وقد اشتممتُ الرائحة القوية للقهوة الآتية بموجاتٍ كثيفةٍ من المطبخ، فلم أقل شيئًا، لم ألتفتْ إليها البتَّة، وما زلتُ أُربِّت على كلبي الهجين بينغو، ثم شرعتُ أُفكِّر أن سيجارة الصباح الأولى، تلك التي سوف أُشعلها بعد قليل، بُعَيد شرب القهوة، تلك السيجارة سوف تكون، دون أدنى مجالٍ للشكِّ، إحْدى العجائب السبع.




Arab_Books

الانفجار

كانَ شعاعُ الشمسِ قد عَزَمَ على مداعبةِ الأَضِبَّةَ، مِنَ السَّهْلِ أن يُرى ذلك، كفى بك النظر إلى الهبرةِ المَسامية والباردة لِلْكُتلَةِ الهَوائيَّة التي تغطّي المزرعةَ ثُمّ تُلاحِظَ أَنَّ لَمَعاناً مُرذّذاً يُحاوِلُ الدُّخولَ فيها، فتذكَّرْتُ السِّتَّ ماريانا وَهيَ تَقولُ لي قَبْلَ دقائقَ - وَسُرورُها واضِحٌ مِنْ طريقةِ تَحَدُّثِها، بالرغم من عينيها المنخفضتين - إنَّ «حرارةَ الأمْسِ لَمْ تَكُنْ إلّا مِنَ المُقَبّلات»، بَيْنَما أَنا جالِسٌ فِي السّطيحة، ألاحِظُ جيدًا ما يَحْصُلُ، وأَتَجَوَّلُ بِعَيْنَيَّ في أَشْجارِ الحقلِ وشُجَيراته، دون أن أنسى أصغرَ الأشياءِ في حديقتي، وهكذا مُنْهَمِكٌ في هذا الشُّغْلِ الهادئ كَنْتُ أحسّ برئتيَّ تشكران أصابعي كلّما رفعتُ السيجارة إلى فمي، وكذلك أحسّ، مِن المكانِ الذي كنتُ فيه، أنَّها تُحدّق فيَّ وتدخّن مِثلي، ولكنّها تُضيف إلى هذا التصرّف شيئًا من الجزع، وبالتأكيد تجادلني من خِلال نتوءات إيماءاتها، ولكني لم أكترث لها، كان مرامي السكوت، إذ



إني أحببتُ أن أخفض نظري صوب التوتيات ذات الأوراق الجديدة، التي تبرز في الأُفق لفرط اخضرارها (جَمالٌ ما بعده جمال!)، وإذا بعينيّ تُساقان فجأةً - وعندما تحدث هذه الأمور لا نعرف البتَّة أي شيطان قام بها - فبالرغم من الضباب، هذا ما أراه: فجوةً في السياج النباتي، وَيْلٌ لي!، فهرستُ وحرقتُ إصبعي في المنفضة، بينما هي تسألني غير مستوعبة لما يحدث: «ما بِكَ؟»، ولكنّي لم أجب، ارتميتُ متعثّرًا على السلّم (وبينغو في الفناء ينتظرُني مكهربًا)، وهي ورائي تكاد تصيح: «ولكن ما بك؟»، بينما الستّ ماريانا تخرج مُسرعةً من المطبخ بسبب الضجّة، تُحملق عدسات نظارتها السميكة وهي واقفة متردِّدة في أعلى السلّم، في يديها الفوطة والطنجرة، غير أني لم أرَ شيئًا، تركتُهما ورائي وجريتُ كالمجنون، وما إن وصلتُ قريبًا من الفجوة لم أتمالك، «ملعون ابن الشرموطة نملُ المَزارع هذا»، ثمَّ كرَّرتُها بقوةٍ أكثر «ابن الشرموطة، ابن الشرموطة» لمّا رأيتُ أشبارًا لا بأس بِها من السياج مأكولةً بشكلٍ صارم، وأيضًا عندما رأيتُ مساحةً في الأرض تُساوي أشبارًا لا بأسَ بِها مَفروشةً بأوراقٍ صغيرةٍ، يجب أن يكون للإنسان روح الجنائني لكي يفهم معنى هذا، كنتُ ساخِطًا من رؤية ذلك التخريب، ولاعنًا دينَ تلك الفجوة، فقط أفكّر أنَّ نبات



السياج[1] لم يكن على القدر المرجو من الجودة، كلّ هذا الكدّ ليتحشّر أخيرًا النّمل ويدسّ أنفَهُ فيهِ، وبسرعةٍ انطلقتُ مسلَّحًا نحوَ الأرض جانبَ الفجوة، متفرّسًا أثرًا يقودُني إلى بيت النمل، مُتَتَبِّعًا السربَ المُتستِّرَ عندَ جذورِ الحشائش العالية، وإني لَأُفاجِئهن مُلتجئاتٍ هُناك في تلك الساعة، لشدّة انهماكهن طوال الليل بنشاط القطع والحصد، وسُرعانَ ما اكتشفتُ البيتَ، مرتجفًا أزبد، فأرمي من الجردل الذي قد قبضتُ عليه جرعةً مزدوجةً من السّمّ على كُلِّ مدخلٍ من مملكتهن، بشراهةٍ لا يعرفها غيري، لأني أنا فقط من يُدرك شُعوري، لاعِنًا دينَ تلك النملات المنظَّمات إلى هذه الدرجة، لاعِنًا دينَ نجاعتهن المِثالية هذهِ، لاعِنًا دينَ هذا التَّنظيم الخرائي الذي يهمل الحشائش غير المفيدة كي يستهلك نباتَ السياج الجيّد، ومِن ثَمَّ أتحتُ لهنَّ هذا السُّكْرَ الدَّسِمَ، غامرًا حجراتهنَّ الديماسية بشطّةِ المُبيد الغزيرة، حريصًا على عدم ترك أي أثرٍ من الحياة هناك، داكًّا قواعدهنَّ بكعبي، وعند عودتي من تلك الأرض البائرة، تاركًا ما زلت في طريقي شراراتٍ قويةً، لاحظتُ أنها والستّ ماريانا كانتا حينئذٍ تُثرثران هناك في الفناء بين البيت والنجيلة، وتسند طيزها الأنيقة

---

(١) في الأصل: ligustro، وهو نبات من أصل صيني يستعمل للسياجات الطويلة في ريف ساو بالو. وبالعربية: «جنبة الرباط».



على رفرف السيارة، بينما يعيد لها ضوء النهار، بسرعةٍ، انطلاقة الأُنَيْثَةِ المتحرّرة، ببساطة فستانها المصطنعة، بالحقيبة المعلّقة على الكتف والمتدلية حتى الورك، بالسيجارة التي بين إصبعيها، مُرْغِيَّةً بهذا القدر من الديمقراطية مع أناسٍ من الشعب، وهذه، بالمناسبة، إحدى زيناتها المفضَّلة، خاصَّةً هي التي لم تكن لتشرّف أبدًا بحضورِها أماكنَ العمل المنزلية، فتُجبرني على خِدمتها في السرير أو حارسةَ البيت في السطيحة، تاركةً الإفطار على مسؤوليتي وحدي عند غياب الستّ ماريانا، وعلى أي حالٍ كلُّ ما أُدركه هو أني دخلتُ، مقطّبَ الوجه ودون أن ألتفتَ إلى ناحيتهما، منحنيًا من باب مُخيزن الأدوات تحت السلّم، حيث تركتُ الأغراض التي حملتُها للقضاء على النمل، مع أني بنفاذ بصيرتي اغتنمتُ المؤونة الموجودة في رفوف تلك المقصورة الفظّة كي أتزوَّد بسموم أُخْرى تُضاف إلى سُمِّي الخاصّ، بين فرش وفحم وبقايا من الدهون، فأَسْكر بالخفاء من غالون به حامضٌ، مشغولًا بأنْ أُبرّج أحشائي من الداخل، مُدركًا سلفًا أن ليس في هذا التصرّف شيئًا من الزوائد، وكل ما أعرفه هو أني، عندما عدتُ ثانيةً إلى الفناء، لم تكن الاثنتان تتحدَّثان بعد، بيد أن الواحدة جنبَ الأُخرى كانَتا مُنفصلتين بشكلٍ متقنٍ، إنها لم تكن قد جعلتْ من حارسة



البيت جمهورًا لها فحسب، بل أيضًا كانت تنتظرني بتظاهرٍ مُثيرٍ يدعو إلى صفعِها على التو، وكأنَّ هذا لم يكفِ، فإنها بالإضافة إليه أخذتْ تَقول لي «الأمْرُ لا يستوجب كلَّ هذا يا غلام، يا من يستخدم العقل»، وأعترفُ أنَّ هذا النداء أصابني في عظم الكعبرة، فإنّ استعمالها لكلمة «غلام» كان في غاية الإزعاج، وما زادَ انزعاجي هو طريقة لفظها لها، ففي نهاية المطاف تنطوي ملاحظتها على عدم الاكتراث الأنيق الذي كانت تحرص عليه في كل ما تفعله، شيء ما على حافة الانزواء، كأنه من المحتّم أن يدعمَ حصافةَ تعليقِها، وهذا ما جعلني أزدادُ غيظًا، «أُفٍّ»، قلتُ لنفسي كأنني أقول «ها نحن، سنبدأ»، ولو أني اكتفيت بعقبة «الغُلام» لأمكنني تمامًا أنْ أقولَ لَها «لقد تَصَرَّفَ فيّ الزَّمَنُ أَكْثَرَ» (مع أنها ما كانت لتعي ما فائدة قولي)، ولأمكنني أيضًا توبيخها لاستعمالها المُمِلّ أصلًا للسُّخرية الشرّيرة، ليس لأني لا أتَعاطى ذوقًا مسعورًا للكلام المُكشِّر المائِل إلى المأساوية، لم يكن هذا ولا عكسه، ولكن بالنسبة لها - وهي ترى في تلك المُمارسة نشاطًا عاليًا للذكاء - كان من المستحسن لو أني ذكّرتها عابِسًا أن لا نتيجة تُرجى مِن خلط السخرية بمدى الأهمية، وأشياء أُخرى كثيرة كان يُمكنني أن أعترضَ بها على تأويلها، إذ إنه من السهل أن يُرى - سواء الظاهر أو



الباطن - تأنيبُها المتكرِّرُ الضِّمْني، رُبَّما لتفرُّغي البالغ للحيوانات وللنباتات، مع أن التأنيب الأشدّ شكوىً، ربّما، هو أنّ أدائي في السَّرير لم يكن بالحرارة نفسها (يعني، الاضطرام نفسه الذي أستخدِمه في إبادة النمل)، ناهيك عن أنها، وعينها على ميزان الحرارة، قد أخذتْ تضبط كذلك زئبقَ العقلانية، من غير أنْ يُخامرها الشَّكُّ بأنَّ عقلي في تلك اللحظة كان يعمل على أجنحة السرعة، ومن غير أن يخالجها كذلك الشكُّ بأنَّ العقلَ ليس باردًا أبدًا وعديمَ الشهوة، إنما يفكّر عكس هذا من لا يتمكن بالتأمل من التوصل الى العقل المحرك له، وكي يتضِّح ذلك يجب أن يكون نابهًا بالواقع، لا يعني هذا أنها ليستْ ذكيةً، هي دون شكٍّ ذكيةٌ، ولكن ليس كثيرًا، بل بشكلٍ كافٍ، وكان يمكنني أن أنطلق بجرأةٍ في الجدال، عاصِرًا حتّى الثفل حَبَّةَ تَهَكُّمِها، إلّا أني لم أقل شيئًا، لم أنبس بكلمةٍ، أوصدتُ كلامي، هي لم تنل الكثيرَ بل فقط الكافي، هذا ما كنتُ أُفكِّر فيه، ولذلك قد بدأتْ تُزَلِّق لسانَها الأفْعوي الذي تَخَدَّرَ طوالَ الليل عند أُنس رِجْليّ وما إلى ذلك، إنَّما أعلمُ أني ما زلتُ موطِّئًا رأسي ولكنِّي أتقدّم، الأشياء ها هنا تُسحَق، وكان عليَّ أن أُصفِّي الحساب - من السهل أن يُرى ذلك - أولًا مع الستّ ماريانا، مع أنه من الواضِح أن المعنية ليست الستّ



ماريانا، وليست هي، ولأكونَ أكثر وضوحًا ليس المعنيُّ أحدًا بشكلٍ خاصٍّ، ولكن مع ذلك فإني سألتُ «أين السيد أَنْطونيو؟»، وكانت طريقة سؤالي لحارسة البيت متوازنةً إلى حدٍّ ما، كسؤال مَن يَكاد - فقط يكاد - أنْ يُسَيْطِرَ على نفسهِ، مع أنه ليس مُهِمًّا إن لم يكن الأمر هكذا تمامًا، فإن مَعِدتي كانتْ في حدِّ ذاتِها حُجرةً وكانِ النملُ يتسلَّق منها إلى حَنْجَرتي، ناهيك عن أني كنت أجرّ إلى المنصّة كلَّ مَن تَحْتَ قَبْضَتي، إذ إني، على عكس ذوقها، سأقوم باستعراضٍ فريدٍ من نوعه، دون جُمهورٍ، ومِن ثم فإني استدعيتُ بقساوةِ الستَّ ماريانا، فسألتُها ثانيةً وهي مرتبكةٌ «أين السَّيِّد أنطونيو؟»، جاعِلًا في صوتي هذه المَرَّة الخشونةَ نفسَها التي يَتَّصِفُ بِها قِناعي، مازِجًا بدقةٍ هاتين الأداتين، الكُلّابة والكَلّاب، كي أقتلعَ مِنْها كَلِمَةً ما، لا لأني سوف أُطالِب زوجَها بتعويضٍ عن تلك الفجوةِ، فلا يمكنه أن يُعتبرَ مسؤولًا عن حنقِ النمل، ولكن - بِما أنّي مكبّلٌ بالغضب - أنا الفجّ كالحصان، كل ما أحتاج إليه هو طلقة البداية، جواب ما، فقط الجواب ما كنتُ محتاجًا إليه، يكفيني من حارسة البيت أية صورة من الصور النمطية اليومية، كـ«طونيو نزل الى القريب من هنا ويرجع بسرعة»، أو، إن زاد حرصُها، كان يمكن للستّ ماريانا أن تبرِّرَه هكذا: «خرج باكرًا ليأتي بالحليب من



الدكان وسيرجع بعد قليل»، وأيْضًا قد تَتَنَدَّرُ بأحد تندُّراتِها، فَمِنَ الوَارِدِ أن تقول بطريقة الزاهدة: «لقد كان طونيو في إحدى الحجرات الديماسية وهو الآن يحتضر متخبّطًا بين النمل»، وحتَّى لو استوجب الأمر أن تقول، مع شيءٍ من الصواب على فكرة، إنه لا نفع مِن أن يكون أو لا يكون زوجُها حاضرًا، شارحةً لي (يا له مِن خبرٍ مستجدّ!) أن النمل يعمل عمومًا في عتمة الليل، والخلاصة أنه لا يهمّ ماذا عسى أن تقصّه عليّ، وفقط الأحمق هو الذي لا ينتبه إلى هذا، مهما كان الجواب، باحترام أو بتخوّف، لا أعرف إلا أنه ما إنْ فتحَت الستّ ماريانا فمَها حتَّى قذفتُ «أنا قد قلتُ إنَّ دوام العمل هنا من السادسة صباحًا حتى الرابعة بعد الظهر، وبعدَ هذه الساعة لا أُريد ان أرى حضرتك في البيت، ولكن لا أقبل بالتغيب في حدود هذا الوقت، أفهمت حضرتك؟ وعلى حضرتك أن تُبَلِّغي زَوْجَكِ، هل تَسْمَعُني حَضْرَتُكِ؟»، وكان لصراخي زخمٌ، مع أن ليس له من الجوهر إلا الرجّة (وهذا ليس بقليلٍ)، وكان يدوي إلى درجة لم تعد تعلم السِّتّ ماريانا كيف تتصرّف، إما تنادي زوجها كي ينفّذ ما كنت قد قررته (بالإضافة إلى أني لا أطالبه إلا ببعض الاعتناء، كان من المعروف للجميع أن دوام عمله يبدأ السابعة صباحًا لا السادسة)، وإما تطلع إلى المطبخ، أو،



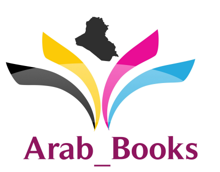
أخيرًا، تظلّ هنا كي تفتح البوابة لتلك الجويرية التي كانت قد وضعتْ يدَها على مقبض سيارتها، معبرةً بشكلٍ مؤقتٍ عن توبيخها لي من خلال تلك الإيماءة، وأفْضل ما وجدتْه الستّ ماريانا في نفوخها، بعد تلك التردُّدات الهائجة لأجنحتها، هي أن تبقى جانبًا، مختبئةً بحكمةٍ في ركنٍ من البيت قُرْبَ السلّم، دونَ أن تطلع ولا تحرِّك ساكِنًا، أما هي - ويدها لا تزال على المقبض، بعد ابتلاعها لحبَّةِ استدراجي الصائبة ونبشها بطريقةٍ عرضيةٍ لبعضٍ من أُسلوب الناس الجِدِّيين (كانتْ تدرك كيف تمثِّل دورَها)، فقد عادتْ مِن جديدٍ وبتلقائيةٍ إلى المشهد قائلةً لي بكثيرٍ من التوازن «إني لا أفهم تغيّرك هذا، تتحوّل بغتةً إلى فاشيٍّ»، قالتْها بشيء من الرزانة، كخطٍّ مستقيم لتعليقٍ موضوعيٍّ، وإنَّما زادتْ قليلًا من اعْوِجاج طرفَي فمها المقوسَّين دومًا، راسمةً أخيرًا عَبْرَ التَّوْمِئة ما كان ينطوي عليه الأمر من اشمئزازٍ، وكلُّ ما أعلمه هو أن هذا كان بمثابة ضربةٍ على الصَّفَن، مع أني متيقنٌ (رغمَ كلِّ شيءٍ) مِن أنّ ليس صَفَني الذي ينبغي أنْ يُستهدف، كنتُ على يقينٍ راسخٍ من أن غضبي يجب أن يُنْتَشل من المورد، أنتَ تجعلني حائرةً»، أضافتْ هي بالرّزانة نفسها، حائرة»، ولكني أمسكتُ جيدًا بالأطراف، فبقيتُ لحظة ساكتًا، مكتفيًا بأنْ ألْتَقِطَ من الأرضِ، صامتًا، قطعتين أو



ثلاثًا من الحطب الجافّ، مزوِّدًا بها الحريقَ المبتدئ والذي أزيد اشتعاله (أنا الذي أتيتُ - بشكلٍ منهجيٍّ - مازِجًا العقلَ بالعاطفة، في خليطٍ خيميائيٍّ غريبٍ)، وهي لم تكن قد دخلت في السيارة بعد، كنت أعرفها جيدًا، لم يكن أُسلوبُها أُسلوبَ مَنْ يتكلَّم ثُمَّ ينصرف، بالعكس، إنها من اللواتي ينخزن نخزةً واحدةً على احتمالِ شرهٍ بأن تُضربَ ضربةً شافيةً، والدليل هو أنها، عند اللدغة، كانت عينها على خشب ناري المُنْعِم، وعلى أي حال كنتُ قد أُصبتُ، أو بالأحرى لعلَّني كُنتُ مُمَثِّلًا فقط يُمَثِّلُ، مثلًا، الألَمَ الذي يؤلمني حقًا،[1] أنا الذي هذه المرةَ كنتُ داخلًا بصراحةٍ في قرارة نفسي، عارفًا، في حرارة أحشائي، ما هي التحولات التي أقدر عليها (لستُ كتلةً متكوِّنةً من وحدةٍ متراصةٍ، ليس أحد على هذه الشاكلة، يجب ألا يُنسى أن بعض الملامح التي قد تُنسبها إلى شخصيتي هي منسوبةٌ قبلَ كلِّ شيءٍ إلى الوضع الراهن)، ولكنّي لن أُحدِّثَها عن ذلك، بل ما يمكنني هو قبول التحدّي، فأبدأ شجارًا ذا مضمونٍ اجتماعيٍّ مُريحٍ، مُدركًا أنها حتّى ولو كانت جزعةً لا تُهمل حسن المقدمة، يكفي

---

(١) إشارة واضحة إلى مقطع من قصيدة معروفة للشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا، «الشاعر شخص متظاهر / يتظاهر بطريقة كاملة لِحدّ أنه / يستطيع أن يتظاهر أنه ألمٌ / الألمُ الذي حقًا يؤلمه».



التظاهر بأني قد عَلِقْتُ بسِنّارتها، معضضًا في طريقي الطُّعمة كلها، راضعًا حَبَّةَ ذُرَتِها كأني أرضع من رأس نهدها، ويكفي لأنْ أزيد من حدّة الكلام أن أُجيبَها كأني كلاسيكي «لستِ أنتِ مَن سيعلِّمني كيف أعامل أجيرًا»، مُذكِّرًا إياها دون تَوَقُّفٍ أنَّهُ لا أحد يُمنَع من أن يَحْتَجَّ على الذين يدوسون، حتى ولو كان هذا المحتجّ من ضمن الدائسين، بيد أنه ينبغي في البداية أن يَرى قوائمَه نفسَها، الجسدَ قبل الملابس، اكتشافًا حسَّاسًا قبل اقتبال القربان المقدس، ولو أردتُ لأتيتُ من أسباب المعاتبة بِما يُشبعُ، لستُ ساذِجًا لدرجة مُطالبتها بالتماسك، لا أرجو هذا منها، ولم أتبجّح بهذا عن نفسي إطلاقًا، إنما الأبله والأزعر من يدَّعيان خدمةَ سيدٍ واحدٍ، فإننا، لكوننا بهائمَ وُلدتْ من البطن القذر نفسه، فكلُّنا حاملون أحقر المناقضات، ولكن، لو تطلَّب الوضعُ من الإنسانِ أن يعرض نفسَه ككائن حيي، فليعترف خلال هذا العرض، ومنذ البداية، على قلّة حيائه، الحقيقة أنه طفح كيلي من كل هذا الجدال بين أولاد البرجوازية الصغيرة النادمين المتنافسين بسذاجة على السخاء، بنعومة جِزَمِهم، مستخرجين من هذه المقارنة ادعاءات الفضيلة الفوضوية، انها تحبُّ هذا التطهير بقدر ما تتطهّر بتعنيفها للطبقة الوسطى، هذه الطبقة التي تكاد أن تُجْحَدَ بشكلٍ مستمرٍّ،

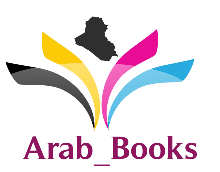


وربما لذلك تتردّد هذه الطبقة: أتعتلي اعتلاء الباشق أم تسير على الأرض بخفة الشباشب وبساطتها، ولفرط تردّدها يلتبس عليها أحيانًا اتجاه هذين القطبين، فلا تعرف: أترتفع إلى الكهانة أم تنزل بوضوح إلى النهب (كيف لها ألا تصل إلى هنالك، وبمجدٍ؟)، ولكن لم يخطر في بالي استفزاز مناقضات هذه الزعراء، فما كنت لأخلط بين شريط الدبوس والحسم الوشيك لهراوتي العبوس، والأسباب التي تجعلنا على حافة الحرب قد تكون مختلفةً، لا تهمّني الملامح الغثّة لشخصية تافهة، وكذلك فإني لم أفسح لها المجال لمآثرها الفكرية الاعتيادية بتحريكي لشص الصيد، لا لمخافتي من الأظافر التي تجعلها للكلمات، فإني أيضًا أعرف كيف أمنح الكلامَ عكسَه المكشّر والجارح بالإضافة إلى وجوهي المعتدلة (ولعلها ماكرة هنا وهناك)، وأعرف، بالحدَّة نفسها، العض الصائب بأسنان الأفكار، إذ إن نزاعاتنا كانت تتكوّن عادةً من شظايا الجمل المرتجلة، ناهيك عن أن حوافري - أنا المدفوع بيّ حتى حدود الصرامة - تعرف كيف تخترع منطقَها، مع أن كل هذا الاعتداء الإنشائي كان قد وصل، بطريقة منهكة، إلى حافة الرتابة، فالوضع لم يعد يتطلب التثاؤب من نوم لم يكتمل، كما أنه لا يتطلب المدّ بضجر لأذرعنا العديمة الفائدة، فالأشياء



هنا في داخلي تنصهر بسرعة مع الحُمَّى، لم يتبق لي حتى حصاة واحدة في الحوصل، فما بالك من الحصب وهو الأفضل لهضم ثرثرتها، دون النسيان أن الرويَّة ليست إلا تغوّطًا قد أُضْفِيَت عليه النبالة، وببلاهةٍ، في مسرحية الحياة، وفوق كل ذلك السيد أنطونيو، في الأُسبوع الماضي، كان قد زبّل مدرجات الخضار، فما العمل بنخالة النظريات؟ إذن خرجتُ بسرعة خاطفة وتخلّصتُ من الأمر بذهابي إلى ميدانها المسيّج، ذهبتُ إلى حقلٍ كانت تتباهى فيه لكونها أُنَيْثة متحرّرة، وهناك سأصيبها، فقط حينئذٍ سأُلحق بها فجوةً (أنا الذي كان بإمكاني، بكل بساطة، أن أصرفها بمجرّد «رُوحِي صِيدي ضفادع»[1] ثمّ أُريها عرضَ كتفيّ وأطلع إلى السطيحة)، فهنالك لا بُدَّ من أن أُحْنق عقلانيتها الصلفة، مع أن ليس هذا ما كنت أقصده (يعني أحنقها فقط)، كنت داخلًا في نفسي ومحتاجًا في تلك اللحظة إلى سندٍ، محتاجًا إلى أدائي، أكثر من أي وقتٍ مضى، إلى الصراخ الثانوي لأي ممثلةٍ، فليكن واضحًا تمامًا أني لم أكن أرمي إلى ثغاء الجمهور، لا البتَّة، كنتُ على وعيٍ نافذٍ عندئذٍ مِن أني لا أُريد إلا صُراخي المتشرّد، وعلاقتها بهذا الأمر ضئيلة جدًّا (أنا

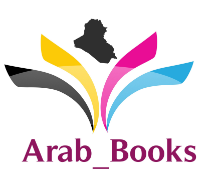
(١) عبارة عامية تُرجمت حرفيًا لكونها مسلية وواضحة الدلالة. يشبهها بالعربية «روحي بلّطي البحر» أو «حلّي عن ظهري».



موافق على أن هذا كله ملتبسٌ، ولكنه هكذا)، قد قلتُ إني كنتُ داخلًا في نفسي (يا له مِن اضطراب!)، كنتُ متشابِكًا بالبلبلة، بالمغص، بالالتواءات الرهيبة لاحتقان حادٍّ، بالأشياء المخمّرة في معدتي، كلّ الأشياء الموجودة في الخارج حملتْها نملاتي شيئًا فشيئًا، بنات الشرموطة، وهن نقّالات ممتازات، متفوقات في هذا الشأن، تلك الحشرات الملعونات وقد دخلن فيَّ من كل ثقوبي، من العينين والمنخرين والأذنين، خاصةً من ثقبَي الأذنين! يجب أن يدفع أحدٌ الثمنَ، دائمًا يجب أن يوجد من يدفع الثمن رضي أم أبى، كانت هذه إحدى الحقائق المقرَّرة في حياتي، هذه هي دعامة الغضب التلقائية (إن لم تكن أفضل انفراج للذنب)، الخُلاصة أني، رغمًا من شُعوري بتواجد بعض الأنظار القريبة - كانت عينا الستّ ماريانا المستنكرتان[1] جاهزتين، وكنتُ قد لمحتُ وراء شجيرةٍ رِجْلَي السيد أَنطونيو المسترخيتين - رغمَ كلِّ هذا نفختُ صدري قليلًا وتقدَّمتُ خُطوتين نحوَها، ولعلها لاحظتْ شيئًا من الوقار في تقدُّمي هذا، فقد كانت الجويرية ذكيةً، وأيضًا متعدِّدة المؤهلات بنت الشرموطة، إنما أعرف أنها

---

(١) ها هنا يستعمل صفة protestantes ولها دلالتان: الأولى مِن الاحتجاج، والثانية، وربما الأقوى، هي الإشارة إلى مذهب البروتستانتية. ورأينا أن الحل الامثل هو ما اثبت.



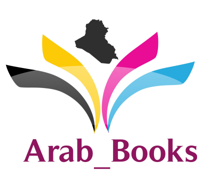
فجأةً وضعتْ يديها على خصرها، غيّرتْ وجهَها، واضعة التحدي في عينيها والتهكم في طرفي فمِها، عدا عن إسرافها في حركات أخرى مصطنعة، مع أن الأمر لا يتطلب كل ذلك، فلم أعد أقدر على كبت اندفاعي، «أنتِ، أنتِ»، أطلقتُها فجأةً «أنتِ، أيتها الصُّحيفية الخرائية»، استطردتُ قاذفًا الشتائم بارتجاجٍ، ولكنها لم تتحرَّك مِن جنب السيارة، إنما ظلت طِيزها تحتكّ بالمقبض، فضحكتْ بنت الشرموطة، ضحكة «ههه» كنتُ أتوقّعها ولا أتوقّعها، وبذلك كانت ترمي إلى إرباكي، ومع كل هذا باشرتُ «ما هذه الأشياء التي تُصرّين على أن تعلميني إياها أيتها الصُّحيفية الخرائية؟ لماذا كل هذا الإصرار على تعليمي؟ فالقليل الذي تعلّمتِه أنتِ عن الحياة كان منّي، منّي أنا»، وضربتُ على صدري عازمًا على رفع صُراخي، ولكن إطلاقها لقول «يا أيُّها الدكتور المبجّل» بِلسانها السامّ الذي يظهر ويختفي بسرعةٍ، ولو ترى كيف تعمل تلك الأداة المزيّتة جيدًا، وعندما استمعت لما قالتْه ارتجفتُ، ليس لسخريتها في حدّ ذاتها، والتي فرّغتْها، على أي حالٍ، بطريقة المديح البدائية المبالغ بها، بل وقبل كل شيء، لعنادها الهاجسي على إخصائي بتسميتي «الدكتور»، نعم، وبهذا تصدّني، كعادتها المستمرّة، عن أي نوع من الإدراك لعدم حُصولي على شهادة، أنا



«المتخرّج في السفسفة» (ماذا تعرف الزعراءُ عن صفقاتي في العمل؟)، مُلَمِّحَة إلى أنه يتوجّب عليّ، في النقاش، أن ألتزم حدودَ شِبشبي،[1] مع أني لم أهتمّ بعد، يعني، لم يعد يهمّني أن أُطاع في مرعى الأفكار، وبالمناسبة كثيرًا ما كنتُ قد قلتُ لها إنَّ شَجاعة الروية تُعرف لا من المهنة ولا أيضًا من الرأس، بل من الحنجرة، مِن الحجم المُتَوَتِّر للبُلعوم عند البلع، وهو عيبٌ تشريحيٌّ موجودٌ في البشر العاديين بقدر ما هو نادر بين المثقفين الهبل، لأن القوة المُرّة للتفكير المستقلّ تأتي من المرض - من المرض وحده -، وأنه لَمِن الواضح أن لا يجوز تحميل الأنبياء مسؤولية شراهة أتباعهم، لكن ما كان يغيظني هو أن أرى تلك الزعراء، وقد مُسِخَتْ بروح العصر، تسلّم نفسها بشهوانية إلى الخرافات الراهنة، يُغيظني أن أرى الزعراء، رغم تمرّدها المصطنع، تنشدّ نحو هذا المالك أو ذاك، وقد حاولتُ مرارًا لا تحصى قطعَ طوقها هذا بالمطواة، وتذكَّرتُ مرارًا لا تحصى أنّ الكلب المكبّل يسكن في عكسه حيوان ضارٍ، كنتُ أقول لها - هي التي

---

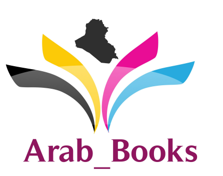
(١) إشارة عابرة إلى نكتة معروفة في أوروبا عن رسام شهير طلب من إسكافي أن يقيّم له شبشبًا كان قد رسمه، فتحمّس الإسكافي وأخذ ينتقد الرسم كله، فعند ذلك قال له الرسام منزعجًا: «لا تتجاوز الشبشب يا إسكافي».



بأي مناسبة تُحيلني إلى مرشديها (وكانت صحة الزعراء من الحديد، تستحيل زعزعة هيكلها العظمي)، كنت أقول لها، وأنا بغاية القنوط ، إن قبل تلك الظلال الباطنية كان وجودي تحت يديّ، ولم أعرف، عدا الرحم، أيَّ قالبٍ قادرٍ على تشكيل هذه المادَّة الخام، ولكنها كانت تحسب أنه لمِن المُروق التنبيشُ في ألواح أصنامها ومحوُ غبارها وتخويفُ تلك الأشباح، فوصل الأمر بنا إلى أني تذكَّرت حادثَ ذلك المَشَّاءِ[1] النَّائي (ولو أنه معاصِرٌ لالتحقتْ بمدرسته ككلب ممالِق، لاحسةً رجليه بخنوعٍ فاجرٍ)، الذي في تاريخه الطبيعي أوردَ مخطئًا أن للحصان كميّةً معيّنةً من الأسنان، جاعِلًا خطأه، بسيره البطيء والتسلطي، يمرّ عابرًا القرون بقوةٍ وكأنه حقيقةٌ، عدا عن معجزات أُخرى كثيرةٍ، ومنها ما زال يرفع منذ النشأة، وبحماقةٍ، على هيكل محمول، وكذلك المدارس (وهي منابر للجزمية) ولقد فتحتْ أجنحتَها أحيانًا عديدةً لمرور هذا الهيكل المحمول، ولم تكن هناك أي فائدة للعظات المعاكسة، ولا للإيماءة التي كانت تحاول تصويب المفتاح، فأنا، «السفساف» («خرّيج» سفسفة)، أنا لستُ دكتورًا، كما أني لستُ «مبجّلًا»، أنا (سخرية) أجل لستُ مرجعًا، ومع كل

---

(١) إشارة إلى أرسطو.



هذا شعرتُ حينئذٍ برغبة مُلِحّة - ولم تكن تلك المَرّة الأُولى - في دسّ إصبعين في كل طرف من شفتي وشدهما حتى ينكشف الفم الغليظ لِفُرْني، وفي الوقت نفسه أغمز بعيني، في إنذارٍ واضحٍ «افتحي فمي وعُدّي بنفسك كم هي أسناني أنا الحصان؟»، مبيِّنًا بهذه الحركة السخيفة قوة التجريبية، طالما أني بالنسبة لها لستُ أكثر من «بهيمة غامضة الأهمية»، وبالمناسبة هذا غاية ما تمنحه لي في اللحظات غير المتشنّجة، ولكنّي لم أفعل شيئًا من هذا القبيل، لم أُكشّر عن أسناني ولم أقم بأيّ فعلٍ مشابهٍ، والخُلاصة هي أن هجومًا كهذا لن يكون تعليميًا، وعلى فكرة كنت قد قلت إنني لم أرغب بثغاءَ الجُمهور، كما قد قلتُ إنني لم أرغب إلا بصراخي المتشرّد، ولكن ما لم أقله بعد - وهو الأهمّ - أني لا أرغب بالخروج من شبشبي، ولهذا السبب عُذْتُ بعنف «ألا يمرّ ببالك، أيتها المُثَيْقَفَة الخرائية؟ ألا يمر ببالك أن كلَّ ما تقولينه، وكلَّ ما تتقيئينه، كلَّ هذا ليس إلا أشياء تعرفينها بسطحية، وليس عن طريق القراءة، لا شيء مِمَّا تقولينه تفعلينه، إنما تستنيكي كأنك عذراء وقورة، وبدون مُخلي لستِ شيئًا يُذكر، وإن لي حياةً أخرى ووزنًا آخر...»، وهنا قاطعتني «يلّا يلّا، كرّر مرَّةً ثانيةً، قُلْ لي إنك لستَ الناسك الذي أظنك، ولكن حواليك شياطين شتّى، يلا، قل هذا، قله



مرة ثانية... هههه... شيطاني... هههه...»، قد تكون فرّغتْ بشراهة، خلال الإفطار الصباحي، مرطبان الزيت للشعر، فإني لم أكن البتّة قلتُ شيئًا يشبه هذا! من الواضح أن الأمر يتزلق، أنا من ناحيتي أرتجف، وبارتجافي هذا أفقد وعيي، مطلِقًا عنان لساني أكثر مما يجب «اسمعي أيتها الزعراء، لا تتكلمي عن أشياء لا تفهمينها، اذهبي وأَطلِقي فمك في صحيفتك، اذهبي وعِظي بدروسك هناك، ندّدي بالقمع، علّمي ما العدل وما الظلم، اذهبي واسكبي نقطتك في سيل الكلمات، بدّدي ورقَ جريدتِك، ولكن لا تتحشَّري في ورق سياجي النباتي!» قلتُ لها وأنا مغتاظٌ على نفسي لانتقالي السريع من الهجوم القصير المدى والصريح إلى مجرّد الدّفاع عن الذات، سانحًا لها بالتحرك، وبالانقضاض بدهاء وبدقَّة مطلقة «هذا مفهومٌ يا سيدي، إني لقادرة على تقييم مخاوفك... كلُّ هذا الخفر، كلُّ هذا الادِّعاء باليقين، كلُّ هذا الاهتمام المفرط الاشتباه بسياجك... وبالمناسبة، لا يُصدَّق كيف أنك تجعل كلامَك مرآةً لك، هيا، ارغِ، واصلْ كلامك، واصِلْ رسم الصورة، ولكن ارجع فيما بعد كي ترى وجهك من هنا... هههه... يا للرعب!» وبعد قولها هذا اغتمنتْ ارتباكي كأنها قد لقطتني وأنا أقترف جريمةً وزادت الطينَ بلّةً «يَلّا ارفع سورًا، عمِّر حصنًا، احمِ ما



لديك بغلاظة السّور»، «لا تستنتجي استنتجاتٍ سهلةً»، قلتُ لها بالكاد، «هذا استنتاج الشعب» أجابت بسرعة، موضِّحَةً أنَّ بعد هذا لا مكان إلا لحكم واحدٍ، وهو في الأرجح دولاب العصور الوسطى[1]، «هل تُدركين بما تجعلينني أُفكِّر يا زعراء؟»، قلتُ بصوتٍ مستوٍ، وكدت لا أصدِّق الهدوء المباغت (والعصبي من الداخل) لكل كلمة، وفضلًا عن هذا تظاهرتُ بأنني سأبدأ شجارًا، تظاهرتُ بأنني وقعتُ في فخّها (هي مصرّةٌ على الديباجة، وتريد، قبل الهراوة، أن أشعل لها أزرارَ جسدِها)، ولكنّي ركبتُ حساباتي، بدليل أنه في الغليان المخفي للقِدر كان من السهل رؤية أرقامي تهزهز أوراكها بين الفقاقيع، «أنتِ تذكِّرينني بالرجل الذي يلبس ملابسَ نسائيةً في الكرنفال: شخص يضع صَدَفتين ضخمتين من الكاوتشوك مكان النهدين، يرسم مدورتين صغيرتين من القرمز على خدّيه، ويخطّ شحطات غليظة من الفحم حول الرموش، كما ويكبّر وجنتي مؤخرته بخديديتين ثم يخرج متبخترًا بطريقة تثير الحسد حتى في الراقصات الكرنفاليات الأكثر مهارة؛ وبهذه الملامح الجدّ قوية، يستطيع هذا الشخص أن يكون - بيد أن الشعر في صدره وفي رجليه يفضحه - امرأةً أكثر

(١) يقصد به دولاباً كان يُستعمل للتعذيب، وذلك بربط جسد الإنسان عليه وشدّ أطرافه.



من النساء الحقيقيات»، «ثم ماذا؟...»، «ثم إن هذا يجعلني أفكّر أن العقائدية والكاريكاتور والمسخرة هي أمور تسير معًا في أحيانٍ كثيرةٍ، وأن المحظوظين مثلك، الذين يتنكرون بأنهم الشعب، يبدون لي عمومًا كمخنّثي الكرنفال»، وقلتُ هذا بالمزيد من الشفافية، دون أن يشوشَ توضيحي أيَّ حادثٍ ، ولكن سُرعةَ سليقتِها كانتْ مدهشةً، ليس فقط في الشعبوية، إنما في الأُسلوب كذلك كانت تبلغ تكييفية متسامية «أي مواطن له الحقّ، أجل، بأنْ يضع مدورتين صغيرتين من القرمز على وجنتيه وبأن يدوّر طرف أنفه بكرة حمراء وبأن يعلّق في ذراعه عودًا سميكًا وملتويًا بدلًا من العكاز وبأن يضع على رأسه قبعةً للأطفال طويلةً وحادّةً وبأن يخرج فيما بعد مداعبًا الناس في الميادين العامَّة... ههه... ههه... ههه...»، كان عليّ أن أُهَنِّئَ الزعراءَ، فلم أكن أملك موهبتَها، وقاحتي لم تصِلْ إلى هذا الحدّ، أن أتظاهرَ بعدم المبالاة وأنا هكذا قريب من النار ثم أقهقه على حافة الاستشهاد، عليّ أن أعترف بنجاعة استهزائها، بهتٌ عابرٌ زحف على رأسي خلال لحظة، شعرتُ فجأةً بأن رِجليّ مبتورتان، سقطتُ في جمودٍ كاملٍ، لاحظتُ بطرف عيني اليُمنى - مطروحةً في ركن من البيت - السِّتَّ ماريانا وقد سحبتْ وجهها بعجلة، وبطرف العين اليسرى - مرتبكًا بين ورق الشجيرة



- وجه السيد أنطونيو البطيءَ، لا ينتابني الشكُّ بأنها تتمتع بوجود مشاهدين، «اطمئني يا زعراء، الناس الذين مثلك يؤدون مهمةً» قلت بمرارة، «اطمئن، يا شطّور، الناس الذين مثلك أيضًا يؤدون مهمةً: أنتَ بوقوفك مكتوف اليدين يجوز أن تُعْتَبرَ متواطئًا، ولكني الآن أرى أنَّ هذا قليلٌ عليك، إنَّما ستُحاكَم بصفتك عَميلاً»، «لم أطلبْ رأيَك» قلتُ، حاميًا نفسي بالكلام المُنَمَّطِ، وهو عكازٌ متعطّلٌ رغمَ كونه قادرًا على تعويضي بإثارة ما تبقَّى لديّ مِن العضلات، شعرتُ بأن فقاعتين عملاقتين تفجرتا هنا في عضلات عضدي، بينما كنت أحاول استعادة - ويا لها من مغامرة عظيمة! - رشدي المشغول، جاعلًا، بالضرورة، العيّ والسيادة يتصادفان، «إني أملك محاكمي الخاصة للحكم على ما أقوله وعلى ما أفعله، وأنا لا أعترف بأن أي شخص- إطلاقًا - له السلطة الأخلاقية كي يقيس أفعالي» قلتُ، مُغيِّرًا فجأةً طريقةَ الإنشاء (كنتُ قد هيَّجتُ معيارَ النغمة، ملتقطًا نبرةً مشبوهةً، ولكن، بما أنَّ كلَّ شيءٍ مرهونٌ بِالسياق، فما هو ذنبُ الكلماتِ، إذ إنها - بِما فيها مما يُعْجَز عن وصفه - مجرّد أدوات؟ إنَّما توجد، بالأحرى، الحلول العديمة النفع)، وأخيرًا قلبتُ نهائيًا المَقاييسَ، راميًا ثلاثَ مجارف من الإسمنت لكلِّ مجرفةٍ من الرَّمل، جابلًا مِلاطَ الخطاب بسبيكة مختلفة،



حافظًا لنفسي برشانة نقيةً وجامًا شامخًا من النبيذ لدى دُخولي، حاسمًا ومتماسكًا (وفضلًا عن ذلك أُستاذيًا كممثِّل)، في طقوس قداس أسود: «قد كنت في الثالثة عشرة من العمر لَمَّا توفي والدي، ولكنّي لم ألبس الحدادَ في أية لحظةٍ، وكذلك لم ينتَبْني أيُّ شعورٍ بالفقدان، فليس لي أن أبحث الآن عن أُبوَّةٍ جديدة، فيتوجب افتداء تاريخي لكي أتنازل عن هذا اليتم»، «عليّ أن أُهنئكَ على هذه المأثرة» سرعان ما قالتْ «أنتَ الوحيد الذي يستطيع أن يكون يتيمًا وشائبًا في الوقت ذاته... ههه...» وفضلًا عن تضليلها لما قلتُه، فإن تَهَكُّمَها اصطنع كذلك انتشارًا رقيقًا، إذ تلمّح، بإدراجي في الجيل الرمادي، إلى أن هذا يسئمني بشكلٍ هائلٍ، أنا تمامًا، أنا الذي أربي عادات شيخوخةٍ قبل أوانها، وكانت الزعراء على علم بذلك، فإنها لم تجهلْ، حسبَ تعليقها نفسها، «زعمي النافل» هذا، مِمَّا يزيد مِن أهمية التلوي الجسور لنكتتها، خاصّةً إذا افتكرنا أن لديّ شيئًا من الشَّعْر الأبيض، المتسلسل زمنيًا، النابت مع انضباط العمر، ولكنّي كنتُ بعيدًا عن أن يكون شعري مختلطًا (كانتْ تخريطاتُ أفكارِها متألّقةً، لا شكّ في أنها تستحقّ التهانئَ)، الحقيقة هي أن الاستهزاء، بغضِّ النظر عن تألّقه، كان يُخفي، كما هو شأنه دائمًا، ضبابًا مكثّفًا من الشهوانية، طَلَبُها ذاته المعاتِب والمستفِزّ



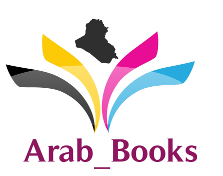
والمُسهب، وفي الخلاصة لم يكن لدى الجويرية أبدًا ما يكفيها من هذا «الشائب»، إنَّما أعرف أني ما زلتُ راكبًا على حساباتي، مع أني، بمُطلق إرادتي، موافقٌ على أنها ما دامت تشدّ أُذنَي أرقامي بأصابعها، إذ إني، رغمَ انتهاءِ الأجل الذي كنتُ قد منحتُه بنفسي للمشاجرة، رأيْتُني أجمع مستعجلًا - طرفًا بطرفٍ - الخيطَ الذي كانت قد قطعتْه منذ قليلٍ «قلتُ وأُكرِّر: يتوجَّب افتداء تاريخي لكي أتنازل عن هذا اليتم، أعلم انه مستحيلٌ، ولكنَّ هذا هو الشَّرط الاوليّ؛ قد مضى الزمن الذي كنتُ أرى فيه التعايشَ ممكنًا، وكلّ ما كنتُ أرجوه برأفةٍ من هذا الأمر المشترك هو حصَّتي، وقد انقضى الزمن الذي كنتُ فيه أرتضي بِعَقْدٍ، تاركًا أشياءَ كثيرةً في الخارج ولكن دون أن أتنازل عمَّا هو حيوي بالنسبة لي، قد غبر الزمن الذي فيه كنتُ أعترف بالوجود الفاضح لقيم متخيّلة هي العمود الفقري لكل 'نظام'؛ ولكن لم يتوفَّر لديّ حتى النَّفَس اللازم، وبِمَنْعي من هذا التنفُّس قد فُرِضَ عليّ الاختناقُ، وهذا هو الوعي الذي يُحرِّرُني، هو الذي يدفع بي اليومَ، اهتماماتي الآنَ مختلفةٌ، اليومَ عالَمُ مشاكلي هو عالَمٌ آخر؛ في دنيا غريبة الأطوار - نهائيًا خارجة عن المجال - آجلًا أم عاجلًا كلُّ شيءٍ سوف يتحجّم في وجهة نظر، وأنتِ، التي طالما تتملّقين للعلوم الإنسانية، لا ينتابك



الشكّ بِأنك تتملقين لنكتةٍ: مِن المستحيل تنظيم عالم القيم، ولا أحد يزكّي منزل الجنّ؛ ولذلك أرفض التفكير في أي شيء لم أعد أؤمن به، أيًا كان: الحب، الصداقة، الأسرة، الكنيسة، الإنسانية؛ لا أُبالي إِطلاقًا بكلّ هذا! وما زال الوجودُ يُرعبني، ولكنّي لا أخاف من البقاء وحيدًا، فإني اخترتُ المنفى بكامل وعيي، وأكتفي اليومَ بوقاحة غير المبالين الكبار»[1]، «ها هو المتفلسف الميتافريقي، التأمُّلي... ما إن أُطلق زمامَه حَتَّى يَنْطَلِقَ بحمرنته المهذارة... لا جدْوَى مِن هذا، حديثُكَ أصْبَحَ في خَبَر كان» قالتْ حازمةً، حاسمةً الأمر بالرقابة، خاتمةً احتجاجي بِالشّمع، حافظةً له بأرشيفٍ مغلق، واضعةً أخيرًا حول حزمة أفكاري حلقةً صلبةً مِن الحديد، من الوارد أن أتّصف بشيءٍ ما (لعلها الرموش الخاملة، المتمددة؟) بَقَرِيٌّ، ولكن يجب كذلك الاتفّاق على أنها تجاوزتْ في الجسارة بارتكابها ذلك العنف الفظّ ضِدَّ أنفِ حِصاني، بيد أنها تحمي نفسها حتَّى في الحقوق التافهة، ممدّدةً بلذَّةٍ غير متناهيةٍ صَمْغَ الكلمات، ماضغةً هذه الكلمة أو تلك كأنها شريطٌ مطّاطٌ أو مَنِيُّ أبيها، الزعراء «تتمرأ»، «تتفلسف ميتافيزقيًّا» على طريقتها، عليّ أن أضع

---

(١) عبارة «غير المبالين الكبار» موجودة في قصيدة لفيرناندو بيسوا سيستشهد الراوي ببعض أبياتها (دون إحالة) فيما بعد.



نهايةً لهذه المهزلة، قد ذهبتُ بعيدًا بالديباجة، مُداعِبًا أكثرَ من اللزوم طُعمةَ الزعراءِ، وشعرتُ أنه لم يبقَ إلا القليل لِتُمَزِّقَ فمي بسِنّارتها، «لا جدوى، حقًّا لا جدوى أيتها البيروقراطية، ولكن لديّ ملاحظة لن أُقاومَ إبداءَها لأهميتها: فقد تعلّمت، وبعد مشقة كبيرة، كيف أحوّل المِيْسم الذي أحمله إلى لطافة[1]، والآنَ أشعرُ، بالمزيد من القوة، أن يديّ حرَّتان كي تتصرفا، ولكن، في طبيعة الحال، بعينٍ على الشرطي عند تقاطع الشوارع وأُخرى على حفلات العربدة والقصف للخفية؛ هذه هي الاستنارة التي يمكن أن تُكْشَفَ للمحرومين، جنبًا إلى جنبٍ مع حرية الاختيار بأن يستخدموا شرارةً مِن هذا النور كي يُشعلوا أوراقَ أيَّ دُستورٍ»، وحينئذٍ تبادرتْ إلى ذهنِها فكرةٌ «قد فطنتُ» قالتْها كمن اكتشف شيئًا عظيمًا، «أظنّ أنِّي حَلَلْتُ اللغز، اكتشفتُ أخيرًا ما هو 'الشغل' الحقيقي الذي يقوم به سِفسافنا هذا، وبالأحرى، الآن فقط فهمتُ سَبَبَ الرَّفضِ المُستمرِّ للتحدُّث عن 'عملك'، لماذا كل هذه السرِّية، فقط الآنَ فطنتُ بجوهر صفقاتِك، إذ إن كل آثار

(١) هنا صعوبة في الترجمة، فالأصل يستعمل كلمة graça، التي لها معانٍ كثيرة، منها الدينية. وقد يكون المؤلف تلاعب بازدواجية المدلول، حيث يتراوح ما بين النعمة (الإلهية) والمزاح. ووقع اختيارنا على الحل الوسط، وهو «لطافة».



خُلقك تدفعني إلى الاستنتاج أنك لستَ أكثر من نصّاب، من سافل، من مزوّر»، وسرعان ما أضافت إلى لُقَيْتِها، رافعةً أنفَها: «لستَ أيَّ مزورٍ، واضحٌ أنك مزورٌ متخرّجٌ»، وأعترِف أنَّ رِجْلَيَّ ارتجفتا من جديد، رأيتُ كلبي بينغو، تمامًا في تلك اللحظة، يقطع مكهربًا بِجَرْيِهِ الفضاءَ بيني وبينها، ممدّدًا - بشعره الأسود واللامع - شريطًا آخر في الجو، وبتتبُّع جريه هذا مددتُ أكثر حبل أعصابي، متلافيًا بحرصٍ تهمةَ التزوير، التي لم أعرف، في نهاية المطاف، أكانت مازحة أم جدية، أو إذا، في حال كونها شيئًا من هذين الشيئين، كانتْ ممزوجةً، وبحصافة، بالشيء الآخر، إنما أعرف أنِّي تغلبتُ على تلك الصعوبة، متحاشيًا الدخولَ في تقييم ما تقوله، غير مصرّح لها بأن تزن خطورة اكتشافها المفترض، فتركتُ الزعراء فاضيةَ اليدين بإخفائي لِتُفَّاحة فطنتها، بحركة تُحاكي خِفَّةَ المُشَعْوِذِ: «أشعر اليوم أني غيرَ مجبرٍ تجاه أي شيءٍ، مع أني كنت لأفضل عبءَ الارتباط على عبء الحُرِّيَّة؛ لم يكن لديّ خيارٌ، فقد اختِرتُ، وإذا كانوا، من جهة، قد كشفوا لي القدر، فَمِن جهة أُخرى قد تكلَّف القدر بأن يكتشفني: إطْلاقًا لا أَتحمَّلُ المسؤوليّةَ عَنْ شَيْءٍ، لَسْتُ الآنَ مسؤولًا حتَّى عَن خطواتي، وبالأحْرى أتجوَّل في صراطٍ واسعٍ، كلُّ ما أَعمله، كما قد قُلْتُ، هو وضع عين على الشرطي



عند تقاطع الشوارع وأُخرى على حَفَلات العَرْبَدَة والقَصْف لِلْخَفِيَّة»، «يَلّا، ما إنْ أُهْمِلَهُ قَليلًا حَتَّى يحلّق بكلامه. . . بلاش التظاهر بالأبُّهة، اهْبط من هذا العلو، افْهم يا سُكاكي أن هذا التسلُّق سهلٌ جدًا، وما يُحسب حسابه في الحياة هو جودة النزول؛ لا تأتيني إذن بالقدر ولا بالمقدّر ولا بالكرما ولا بالندبة ولا باللطخة ولا بالميسم ولا بالوصمة، أخيرًا، لا لِكُلِّ هذا الكم الهائِل من الاكسسوارات التي أسميتها أنتَ، بأسلوبك الغريب الأطوار، 'تاريخَك'؛ ولو وضع فيلسوفنا الميتافيزيقي رِجليه على الأرض لرأى أنَّ تقلُّبَ العالمِ رأسًا على عقبٍ إنَّما يتطلّب حُلولًا عقلانيةً، ولا يهمّ كثيرًا إن كانت دائمًا حلولًا محدودةَ المَدَى، فالأهمّ أن تكون، في حينها، الأفضل؛ إنما الأبله هو من يرفض الحلولَ التي تحت السيطرة، مهما كانت غير مستقرّةٍ، دون الغياب عن الفكر أن البواعثَ الفرديةَ غيرُ مُهِمَّةٍ في صفقات الحياة - هذه المسألة الصغيرة التي لا تكفّ عن شغل بالك - وإنَّما الجديد هو أن نتقدَّم إلى الأمام، والتاريخ يُدفع إلى الأمام باليَدِ الصديقة للقَتَلَة؛ وبالأحرى، فإن المستويات العالية علو السماء لتطلعاتك وهوسك الغبي بالكمالية، كل هذا كان لا بدَّ أن يصل بك إلى ما وصل: هراءٌ متسلِّطٌ لمحطّم إيقونات بائس - القرد المعهود في دكان بيع



الخزف،[١] وبالإضافة لهذا يتحدّث بهذه النبرة المأساوية كأنه النموذج الأصلي لطبقةٍ تحتضر... زِحْ عنى يا هيكل من العظم»، وسرعان ما تصف أدائي بالتطهيري («تطهيري محض»، غمغمت)، هذه الكلمة ذات القدرة التدميرية الرهيبة والتي - لاستعمالها غير الحصيف أو المسرف - حوَّلتْ دماغَ الزعراءِ نفسه إلى فطر ذُرّي، ولكني تغلبتُ من جديد على الموقف، متجاوزًا كذلك «الكم الهائل من الاكسسوارات» (إلى الأمام بالكرة!) وأخذتُ أدفع بسردٍ تاريخي، جاعلًا له معادِلةً استوائيةً ملتهبةً، كما هو في أَصله[٢] (دمٌ ورملٌ)، مِمَّا يُكوّن عمليةً كاملةً لِعَدم تنازلها عن القِيَم الإيجابيةِ للزعراءِ، مع أنها، من جهة أُخرى، لا تمتنع أبدًا عن قِيَمي السلبية (أو عن «اليد الصديقة للقَتَلَة»): «قد قلتُ إن الهامش كان في يومٍ مِن الأيام عذابي، والآن صار الهامش نعمتي، الآن، إلى جهنم بهذا العالم الذي نبذني لَمَّا أردتُ المشاركة! فلتسقط المدن ولتتعذَّب الشعوب ولتنتهِ الحرية والحياة! عندما يكون الملك العاجي مهدَّدًا، فما أهَمِّيَّة لحم وعظام الأخوات والأمَّهات والأطفال؟ لا يثقل شيء على النفس أن يكون

---

(١) إشارة ترجمت حرفياً الى مثل يقول: «تصرف كالقرد في دكان بيع الخزف» بمعنى أنه كيفما تحرك يكسر كل شيء، شاء أم أبى.

(٢) ليلاحظ هنا التلميح إلى الأصل العربي للمؤلف.



هنالك، بعيدًا، الأبناء يموتون...»[1]، «ههه... قد فقد رُشْدَهُ... ههه... يا منحرف!»، «فليسقط كل شيءٍ، سأدير ظهري له؛ فلا جواب للمحال إلا الجنون، والجواب مرّ نعم ولكنه على الاقلّ مناسِبٌ، وهذا غير مرهونٍ بمرسومك، إذ إنه من السهل، منذ الآن، التنبؤ بمستقبلك: فضلًا عن كونكِ صحفيةً بارعةً، فإنك تَسْتَوفين، وبتألقٍ، الظروف كعضوٍ في الشرطة النسائية؛ وبالأحرى، في ما يخصّ تجاوزات السلطة، لا أرى فرقًا بين رئيس تحريرٍ ورئيس شرطةٍ، كما أنه، على أي حال، لا فرق بين صاحب جريدة وصاحب حكومة، وكلاهما متواطئان مع أصحاب من أنواع أُخرى»، «ليس معي سيُصَفَّى حسابُكَ، أيها المنحرف الطنّان، بل مع الشعب، آجلًا أم عاجلًا»، «فكّري حتى ولو كانت مرَّةً واحدةً، يا زعراء، بهذا الأمر الواضح، مهما كان غريبًا على فولكلورك الشخصي، ومهما نفر انضباط أذنيك من هذا النشاز: الشعب لن يصل إلى السلطة إطلاقًا»، «يا مجنون

---

(١) هنا، ابتداءً من «عندما يكون الملك العاجي» حتى «يموتون»، تستشهد الرواية، حرفيًا، بمقطع لقصيدة كتبها الشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا، شطرها الأول هو: «سمعتُ حكاية تقول إنه قديمًا، في بلاد فارس، / نشبت لا أعرف أي حرب / وبينما يشتعل الغزو في المدينة / وتصرخ النساء / لاعبا الشطرنج يلعبان / لعبتهما المستمرة» الخ.



القرية!... فقد دخل نهائيًا في حالة تشنّج، مَن يدري ماذا سوف يُنْتَجُ عن هذه الغشية المحتدمة...»، «الشعب لن يصل إلى السلطة إطلاقًا! إذن فلن تكون معه تصفية حسابي؛ مذلٌّ مهانٌ، الشعب وحيد، وسيكون دومًا جمهورَ المحكومين؛ كما أنه يقول بلاهات أنتِ تُشيدين بها دون أن تنتبهي إلى أنَّ الشعب، في العموم، يتكلَّم ويفكِّر حسب موافقة من يحكمه؛ نعم، يتكلَّم بنفسه عن نفسه عندما يتكلّم (كما أتكلّم أنا) بالجسد، مما تقلّ جدواه، إذ إن هويته لا تختلط بهوية ممثليه المزعومين، وإن القوة الحقيرة للسلطة هي الأساس المتحتم لكل 'أمر'، هذه الكلمة الثاقبة التي تدمج، في آنٍ واحدٍ، الصوتَ غيرَ المُطاقِ للإيعاز والوضعَ المستقرَّ للأشياءِ؛ أجل، الشعب يمكنه حتى أن ينال بعض الخيرات، ولكن دائِمًا بصفته جمهورًا لتلاعب القيادات النامية؛ لذا فإلى الأمام يا زعراء - ضعي الشعبَ على لسانك وثرثري كالببغاء بخطابِك البِدائي، مع كونه دون شك مُبهرًا، بل مغلِّظًا، بتقليده، الحبلَ الخانقَ للحُمْلان، تمامًا كالمُقامق العديم الإحساس الذي يُجلس الأطفالَ على ركبتيه، بأبويَّةٍ، مُشهرًا ضِمْنًا بِفنِّه بعضَ الاحتيالات، رغم كونه محتالًا أيضًا بإخفائه لصوته نفسه؛ ولكن لا تكترثي يا زعراء، فإنك سوف تبلغين ما تريدينه... أجل، راكبةً



على ثورةٍ مسلوبةٍ، راكبةً على ثورةٍ مزيفةٍ؛ أمَّا بالنسبة إلى هذا الضائع، أو المنحرف، إنما أقول لكِ أن لا أحد يهدي الذي أضلّه الله! لا أقبل إذن زريبة الخنازير التي نحن فيها، ولا 'نظامًا' آخر يُقام، انظري ها هنا» قلتُ ظانًّا أني وصلتُ إلى قمة الطقوس بتشدّدي المفترض في اللهجة، ولذلك، كتعويضٍ، نزّلتُ إيماءتي بحقارة «لي خصيتان، يا زعراء، لا أعترف بأي سلطة!»، «أوصانا! ها هو الذَّكَر قد أتى! النرجسي! دائمًا ناءٍ وهشّ، وليد الفوضوية!... ههه... عقائديٌّ وسخيف ومتهتِّك... ههه...»، «افهمي يا زعراء أن أي 'نظام' يمنح امتيازات للبعض على حساب الأغلبية»، «افهم يا منحرف أن الفوضى كذلك تمنح امتيازات، بدايةً، للقوة العمياء»، «قوةٌ عمياء مِن غير مقدّمات ولا قانون يسوِّغها»، «إني متكلمة عن شريعة الغاب»، «ولكنها شريعة لا تتظاهر بالحياء، لا تدع مكانًا للرياء، ولا يستنجد، بلا حقّ، بعقلٍ معقم كدعامة»، «إذن فالبسْ المئزرَ، أو لا تلبسه، يا غوريلا»، «لستُ بحاجة إلى حثك، ابْقي عندَك، في دائرة نورك، ودعيني هنا، في عتمتي الكثيفة، لستُ من اليوم وأنا متمرّغٌ في الظلمات: لا أتعاطى شُحوبَ الساروفيم، لا أبني بعينيّ نظرةً تقيةً، لا أضع إطلاقًا على وجهي قناعَ القداسة، كما أني لا أُغذِّي احتمال رؤية صورتي مُنَصَّبةً



على المذبح، وبخلاف السامريين الصالحين، لا أحبُّ قريبي كنفسي، لا أعرف حتى ما هذا، ولأختصر أفضلياتي فإني لا أُحِبُّ البشر؛ في نهاية المطاف، يا زعراء، ينبغي على أحدٍ أن 'يتولّى' - وهنا أستعمل كُلَيْمَتَكِ السحرية - دور الوغد الضلِّيل في التاريخ، ينبغي على أحدٍ أن يتولّى هذا الدور على الأقل ليحافظ على الهالة الصافية السابحة فوق رأسك؛ إني لأتولَّى إذن الشرَّ كله، إذ إن ما في الخُبث من الإلهي هو بقدر ما في القداسة من الإلهي؛ ومن ثمة، يا زعراء، إن كان من غير الممكن أن أكون محبوبًا، فإني راضٍ حتى الشبع بأن أكون مكروهًا»، «الآن هو احتجب عن العقل فيبعثُ روحَه، وبسخافةٍ، إبليسًا... هِهه... صخبٌ وعنفٌ... هِهه... بل إنك لستَ أكثر مِن نتاج ثانوي لشهوات غامضة، فكل هذه السفسطة التي تثرثرها بطريقة هاجسية إنما تصلح لتأكيد شبهات قديمة لي... وأقول لنفسي إن الانحراف الأخلاقي هو دائمًا وليدٌ لانحرافاتٍ أُخرى لا يجوز الاعتراف بها، لا يمكن إلا أن يُكْمَنَ هنا الشرحُ لـ'نزواتك'... فضلًا، في طبيعة الحال، عن الارتعاب الذي أُسَبِّبُهُ لَكَ لكوني امرأةً فعّالةً... أمّا بالنسبة إلى 'منفاك' المتعجرف التأمُّلي هذا، فالوضعُ أصبح الآن واضحًا: بعد طردك مِن قِبل الوعي الجماعي، الذي لا يتساهل مع الضُّعفاء، لم يتبقَّ لكَ



سوى أن تسكن في الريف؛ ولكن علينا أن نحسب، لصالح صديقنا البيئوي، أنه لم يدرج التلوُّث كتبريرٍ له، مُقلِّدًا بذا الأساتذة الدجّالين الذين - بُغيةَ الإخفاء الناجع لدوافعهم الحقيقية - يَدَعُونَ الحمقى يَصِلونَ بأنفسهم إلى الاستنتجات الحقيرة التي تلمّح إليها البداهة، مما هو على كل حال لعبةٌ كاملةٌ تُرضي الجميع: الأُوَّلون، بروحهم اللعوب، يتلذذون باحتيالهم على صمت، بينما يبتهج الآخرون، بروحهم الضّاجّة، بحدَّة ذهنهم؛ مع أن هذه ليست هي حالتك: بما أنك دجّال دون أن تكون أُستاذًا، ما كان يجب أن يُخفى أصبح بديهيًا، فكانت النتائج على عكس ما تشتهي، فلم يُكتب لـ 'قدرك' إلا هذا: العيش في مخبأ مع أحد من جنسك - إبليس وكلبه الكليب... وهذا التعايش قد ينجم عنه فيلم سينمائي... ههه... واحد يسدّ ثُقَيْبات السراج، والثاني يقوم بالحراسة حتى أول الليل، والاثنان حريصان على خصوصيتهما التامّة الانزواء، ومن ثم، سرًّا وبشكل تبادلي... بين قرصات ولعقات... يعملان بفنطيستيهما حفلات العربدة المتخفية... ههه... ههه... ههه... أنتَ مُقرف!»
وصبَّتْ عليَّ دفعةً واحدةً هذه العاصفة، كامشةً، ممددةً مرة ثانية يدَها بقوةٍ إلى المقلع لتزيدني قذفًا بحججها على وجهي، فضلًا عن أنها تخزني بأشواكٍ فظيعة؛ كبحتُ



لعابي ولكن أسناني اصطكت بقوة، ولهذا السبب وليس سواه قمتُ بتشظية الخطاب النزفي المتدفق من دماغي: «نعم، أنا، الضائع، نعم، أنا، المتفاقم الفردانية، أنا، عدو الشعب، أنا، المتعاطي اللاعقلانية، أنا، الفاجر، أنا، الصرع، الهذيان والغباوة، أنا، العاشق...»، «أحرقني أيها اللسان الناري!... هههه...»، «... أنا، الفتيلة المتشنجة، أنا، شرارة الفوضى، أنا، المادة الملتهبة، أنا، الحرارة المستديمة، أنا، الشعلة المقوِّضة...»، «حوِّلني إلى شراراتك!... هههه...»، «أنا، الطاعن في السن والمتلاعب بالحربة الثلاثية، أنا، الطابخ في غلاية هائلة من الكبريت، أنا، اللاعق دومًا شفتي الهدلاء باللحم الطري للأطفال...»، «يا للنار العنيفة والشديدة الحلاوة!... هههه...»، «... أنا، الدرن، الكَلَم، الورَم، القرحة، الجرح، سرطان الجسد، أنا، كل هذا دون سخرية وأكثر بكثير، إلا أني لا أجعل من جوع الشعب تَنَكُّرًا لشهيتي النهمة؛ اِعلمي أيضًا أني لا أُبالي بهرائك هذا، ولا يمنعني من تنظيف مؤخرتي بإنسيَّتك إلا مبادئ علم الصحة؛ لقد قلتُ إنَّ ليّ حياةً أُخرى وثقلًا آخر، يا قزمة، وهذا، نِهائيًا، لا تستطعين أنْ تجعليهِ في جدولِ أخبار رأسك الصغير» قلت، ساكبًا مرارتي في دم الكلام، شاعرًا بأنِّي زعزعت بعضَ



عِظامِها، كانتْ صدمةُ التنكُّرِ صائِبةً، ناهيك عن التّفنيد الوقائي لإنسيَّتها، مع أنَّ مهارة بديهتِها كانت عجيبةً بشكلٍ لا يُصدَّق، إذ، حالَما رأتْ أنَّ الكفاحَ لم يعد يتَّسع للكلام، أمسكَت القزمة، مسرعةً وبعدَ كَبْتِ غَيْظِها، بِذَنَبِ صاروخي، وأخذتْ في الوقت نفسه - بحركةٍ بليغةٍ لخصرها - تحثّني على المواصلة «الغلام يُعظِّم كلَّ شيءٍ. . . يا له من فاشي كبيرا!»، ناطقةً جملتها هذه بنبرتين مختلفتين بوضوحٍ، فبقدر ما كان للأُولى من قوة التهكم المصطنع مغلَّفَة بشيءٍ من الخُبث، كان للثانية من الجدِّيَّة الختامية ممزوجة بخرقة مِن حُزنِ المُهان، ممّا جعلني، رغمَ ارتعادي، وبشكلٍ متزامنٍ، أتقدّم أكثر أمنًا وأستعيد التنفُّس دون أن تُلاحِظ، وبما أني استرجعتُ ذلك الهدوء (المتوتّر في الجوهر) لكلّ كلمةٍ، حاولتُ مجازِفًا «هل تعرفين ما رأيي فيك بالمقارنة إلى رأيي في نفسي؟»، «أنتَ عاجزٌ، إطلاقًا عاجز عن أن يكون لك رأي»، «لا بأس، ولكنك تعرفين ما هو رأيي فيك وفي نفسي مقارنًا واحدًا بالثاني؟»، «يلا انطقْ يا منحرف»، «أعترف أني في بعض اللحظات أتحوّل إلى فاشيّ، أتحوّل وأعلم بتحوُّلي، وأنتِ أيضًا تتحولين إلى فاشية، مثلي تمامًا، إلا أنك لا تعلمين بتحوُّلك؛ هذا هو الفرق الوحيد، فقط هذا؛ فقط لا تعلمين أنك تحولتِ لأن - وهذا في حدّ ذاته ليس أمرًا



مستجدًّا - اليومَ لا يوجد شيء أقلّ موضة من أن تكون فاشيًّا باسم العقل»، «عليّ إذن أن أستخلص أن فاشيَّنا المعترف يصبح أفضل إذا ما قُورن بي»، «بالعكس، فالاعتراف، إن كان، من ناحية، يخلّص، ومن ناحية أخرى يمكنه كذلك أن يحرِّر: أكثر من أي وقت آخر يمكنني الآن أن أتصرّف كالفاشي...»، «ماذا تقصد بهذا؟»، وعيناها كانتا تدلعانني في تحدٍّ كثيفٍ، «هل هذا تهديدٌ، يا منحرف؟»، لكنّي لاحظتُ بطرف عينيّ كلبي بينغو وقد مدَّد جسدَه محدقًا صوبَها، ذنبه خشبةٌ موتورةٌ، أذناه هوائيتان، إنه هجين، نعم، ولكن بالوضعية المتوتِّرة للكلب الذي يحاصر فريسةً، «قِفْ جانبًا يا بينغو» أمرتُه جارِحًا غريزته بالوفاء، «لا تتدخَّلْ» همستُ نابذًا مشاركتَه دون أي اعتبارٍ، طالما أنه ليس من الوفاء بشيءٍ السماح بأن تحرضني الزعراء على هوس الحسابات، دافعةً أيضًا اشتعالي إلى أن يتفرقع بضجة (من السهل الاستنتاج أن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة وأنتَ مستظل بتينة، إنما أريد أن أرى أيَّ أحد يرسم بِدِقّةٍ خطوطًا وقطعًا دائرية ثم دائرةً كاملةً وأخيرًا يثبتُ نظريةً رياضيةً وهو في قلب نار الجحيم)، ولا أعرف إلا أنني استدعيتُ نفسي كاملةً وخطوت خطوةً أُخرى جازمًا لاذعًا «الذين على شاكلتِكِ يسيل لعابهم لأجل جزمة، الذين على شاكلتك يسيل



لعابهم لأجل رِجْل»، قلتُ مُرَتِّبًا بتوازنٍ تامٍّ ازدواجية ارتيابي منها - إرادة السلطة مختلطة بالرغبة في الخنوع -، إلا أن الجويرية، بمؤهلاتها المتعدِّدة، نعم، بتعدُّد مؤهلاتها ألقتْ بحقيبة الكتف في داخل السيارة وأسندت يدها إلى الهيكل كأنها تتحداني للمصارعة، وكان واضحًا ما تريده، مع أني، بالواقع، لم أُرِدْ ضربَها «هل تحسبين أنني أشتهي أن أضربك، يا هبلاء؟»، وكان ردُّ فعلها كالشرارة، لعلّ كلامي يعني إما تراجعًا وإما ضعفًا وإما شيئًا من هذا القبيل، فربطتْ كلَّ هذا على طريقتها بضحكة ازدراءٍ صلبة وحادّة «خَوَل!»، كانت هذه العضّة الحادَّة للضارية، محاولةً، بعضة واحدة، إخصائي بموسى أسنانها («بديهي!...»)، مشهِّرةً بنفسها، كالمتخنث في الكرنافال، من خلال شعر إيديولوجيتها السميك، هي التي كانتْ تتبوَّأ الاحتجاج على التعذيب بينما تمارس، في الوقت ذاته، دور الجلّاد المتجاسر في حياتها اليومية، مثلها مثل الشعب تمامًا، المجبول على حسب صورتها هناك في ملاعب كرة القدم،[١] مثلها مثل الحكومة القمعية التي تكافحها دون هوادة، لا أعلم إلا أن الأمرَ عُلِّقَ

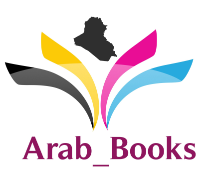
(١) إن المشجعين في ملاعب كرة القدم، في البرازيل وفي دول أخرى من أمريكا الجنوبية، يشتمون منافسيهم باستخدام مسبات تدل على الشذوذ الجنسي للرجال.



وأُضْرِمَت النارُ في السيرك[1] (وعلى أرض الحلبة قناعٌ)، وانهارَ تشييدي المُشتعل، بما فيه قضبان الهيكل، فقلتُ مُلْهَبًا «شرموطة» فانفجر كلُّ ما في فمي ويدي التي طارتْ لتنفجر على وجهها، ولم تكن هذه اللطمة من اللطمات العابثة التي تُكوِّن جزءًا من طقسٍ ما، فإني حينها مزجتُ مُتعمِّدًا الكفَّ بأسلحةِ ترسانتِها القمعية (نعم، العلاجُ سيكون توبيخًا وضربًا!)، لذلك قلتُ ثانيةً «شرموطة» وجعلتُ يدي تطير مرةً ثانيةً، ثُمَّ رأيتُ بشرتها الوردية تمتلئ بُقعًا حمراء، وفجأةً احتلَّ بيتُ نملٍ وجهَها كلَّه، اغرورقتْ عيناها، بقيتُ منتبهًا، العينان الأحرّ من الجمر محدقتان بها، وهي دونَ حراكٍ، مستندة إلى السيارة، أما أنا فقد استرجعتُ صلابةَ عمودي الفقري، بينما هي تُحافظ بشراهةٍ على التراجع الشبقي الذي سَبَّبَتْهُ اللَّطْمَةُ، مُبَلْوِرَةً بِمَوْهِبَتِها مَنْظومَةً معقَّدةً مِن الإيماءات، جسدُها يفتل، رأسُها ملْقىً على جنبٍ، شعرها أشعث مضطرب، وتَمَتَّعَتْ بِالمَسْرَحِيَّةِ الشهوانية لموقفِها هذا بحيث كادتْ تَصِل إلى رعشة الجماع، ولكن ليس في هذا ما يُفاجئني، في نهاية المطاف كنتُ أعرفها جيدًا، لم تهمّها جودة الضرب، فهي لا تنال حتمًا الكثير بل فقط الكافي، كان

---

(١) هنا يوظف الراوي مثلًا دارجًا في البرازيل يقول ما معناه تقريبًا: «إن سعادة المهرّج هي أن يرى السيرك يشتعل».



من الجلي آنذاك أني أمتلكُ رقّاص الساعة وأسيطر على حراكها، كان من الجلي أني غيرتُ، وبشكلٍ حاسم، مجرى الزَّمن، مدركًا، كما أدرك، أنه يتوجّب عليّ أن أستغِلَّ الحقولَ الشاسعة لشراهتها، مدركًا، كما أُدرك، كلَّ التحوُّلات التي أستطيعها، وقلتُ لنفسي ها هنا في داخلي «انتظري قليلًا وسوف ترين المزيد»، «انتظري قليلًا وسأريك أكثر» هذا ما فكَّرتُ فيه حاسبًا أنَّ الخراء الذي يملأ فمي كان قد أخذ يتسرب إلى ركنيه، ولكن لم يفُتْني شيءٌ من هذا الجوهر الحميم، أخذتُ ألتقط بلساني ما يسقط قبل أوانه، ناهيك عن أن الدخان الطافح في تلك اللحظة كان لائقًا جدًّا بالتخفي، فلن أبدِّد تلك الفُرصة لترويض نفسي بالفنون الرهيفة للمشعوذ، ولهذا السبب كان الأمر كالتالي: ظهرتْ نقاطٌ ملتهبةٌ مِن الدهن في خدي، بدأ وجهي يتغير، أَوَّلًا قشرةُ عينيّ، ثم الكتلة الماجنة لفمي، وبعد لحظة صرتُ وغد السرير، وقرأتُ في نار عينيها «نعم، أنت الوغد الذي أُحبه»، وبما أني منتبهٌ دومًا إلى إشارات لحمها، أخذتُ أستخدم لساني الصَّامت والمتعرّج، القادر وحده على المواقف المتجاوزة للأمور غير المتخيَّلة، فلم تتأخَّر حتى حرّكت شفتيها بشكلٍ رخوٍ وقالتْ «يا قذر» وبلفظها الكثير من الارتياب، تتوجب معرفة فمها عن كثب لفهم ما قالته، وتتوجب معرفة هذه



الأُنَيْثَة المتنوِّعة الأمزجة لفهم ما كانت تُلَمِّحُ إليه، تظاهرتُ بأني نسيتُ كلَّ شيءٍ وبأن الدنيا ليست أوسع من متر دائرتنا تلك، وما زلتُ وغدًا، فقالت ثانيةً بشكلٍ أكثر حرارةً «يا قذر»، وكأن معناه «ادعُني إلى الاضطجاع على النجيلة»، هي التي كانتْ تطلب مني في نشواتها الرعوية أن تتنايك على الأيكة، ومن ثم جعلتُ من عضلة لساني اللزجة أفعوانًا سويتُ رأسه، في نفسي أنفة قذرة، «آه» «آه» «آه» قلتُ محرّكًا الرأس الشبق، «قذر، قذر» قالت باستسلام منوَّم، وقد دخلتْ في حالة النعمة ربَّما، مع أنها أبقت منخريها يخفقان بتنفسٍ ضاجٍّ يُهَيِّجُ حضنَها، نهداها يصعدان ويهبطان، كل ريشات جسدها في حالة استنفار، لا فرق بين القول إن الطير كان طيرانه جاهزًا والقول إن أجنحته منخفضة، ولأزيد شهوتَها تشويشًا عسليًا وضعتُ يدي قربَ وجهِها وبدأتُ أمسِّد شفتها السفلى بإصبعي الوسطى، فحدث بدايةً ارتجافٌ، وفيما بعد حرقٌ كثيفٌ، أخذ فمها يتفتح شيئًا فشيئًا ليقوم بأداءٍ تامٍّ، وشرعنا نقول لبعضنا أشياء بواسطة عيوننا (هذه اللغة التي علَّمتُها لها أيضًا)، وكنتُ منتبهًا إلى فمها الذي جعلتُه على جهوزيةٍ كأنه سيقوم بعملٍ ما، قلتُ لها بوضوحٍ بعينيّ «ما كنتِ تتخيَّلين إطلاقًا أنه يوجد في جسدِكِ مكانٌ يليقُ إلى هذه الدرجة بإصبعي بينما أنيكك وأنت تتأوهين» وسرعان ما



أجابتْ عيناها بصرخة «قذر قذر قذر» كأنهما تقولان «مزّقني أَدمِني اِدعسني»، وأحسستُ برأس لسانها لامِسًا رأسَ إصبعي، لاعِقًا ظفري خلسةً، وأحسستُ بأسنانها الفاقدة لشحذها وهي تعضِّض اللباب الرطب، ترضع طعمتي بشراهة، وكنا نتبادل النظرات، يتسرَّبُ الدبقُ مِن بؤبؤي عينيها، وكأني أسمعها تقول القولَ الذي طالما قالته مرارًا عديدةً بطريقةٍ متأرجحةٍ «لا أعرف أحدًا يشتغل مِثْلَك، أنت دون شكٍّ أفضل حِرفي لجسدي»، لذا ظللتُ أصيغ الشبقَ في فمها، ثم نزَّلتُ يدي إلى مرمر رقبتها الساخن، وإذا بحجامتها الممتصّة تبلع أصابعي بنهمٍ، فقلتُ حينَها بفمٍ وسخٍ في ريح مُفاجئ «أنا حافٍ» فلاحظتُ أنَّ حمَّى اهتياج امتلكتها، ولكنّي أخذتُ أقول ببطءٍ «أنا من غير جوارب ولا حِذاء، ورِجلاي نظيفتان ورطبتان، كما هو الحال دائمًا»، وإذا بي أسمع من عينيها صرخةَ نجدةٍ مهلوسةً «صُبّ عليّ بسرعةٍ كلَّ شياطينِكَ، فإني لا أصِلُ إلى الذروة إلّا بِهم»، ولدى استماعي إلى هذه الأنّة المختنقةِ، أنا الحقير همستُ «هل تتذكرين الرِّجْلَ التي مددتُها لك ذاتَ يومٍ؟» فقالت «حُبِّي» بشكلٍ مختنقٍ للغاية، وأنا النصاب ذكَّرتها «كانت رِجْلًا بيضاء ورشيقةً كالزنبق، هل تذكرين؟» وهي قالتْ على مهلٍ



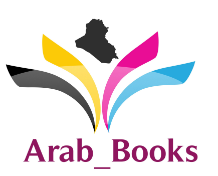
مُغَمِّضَةً عينيها «حُبّي حُبّي» وأنا القذر أضفتُ «ماذا فعلتِ بالرِّجل التي مددتُها لكِ ذلك اليوم؟...»، فقالت مُتَنَهِّدَةً وتَبْدُو داخِلةً في الاحتضارِ «حُبّي حُبّي حُبّي»، فلاحظتُ حينَها أنَّ قائمتي تتمركز عليها نِهائيًا، وأنَّهُ بإمكاني أن أقلبَ رأسًا على عقبٍ - بسبكه في مصنعي الخاص - دِقَّةَ مَنْطِقِها المَزْعومَةَ، إذ إني لو قلتُ بنفخةٍ «هل رأيتِ كم هي كثيرةٌ الأمور التي تعلمتِها مِنِّي؟» لأجابتْ «نعم يا حُبّي نعم»، ولو قلتُ «لماذا هذا القدر كله من الإلحاح على تعليمي؟» لأجابتْ «انْسَ يا حُبّي انْسَ»، ولو قلتُ لها «قد انبثق الفجرُ، ومنذُ زمنٍ تَمَطَّطَ رُشْدُكِ، في أيّ من الطرق يتجوَّل الآنَ؟» لأجابتْ «لا أعرف يا حُبَي لا أعرف»، ولدى رؤيتي للحرارة المقدَّسة والشبقة المتغلغلة في لحمها كان يُمكنني أن أقولَ «كوني أكثر حرصًا عند أحكامك، ضَعي فيها كذلك شيئًا مِن هذه المادَّة المتوهِّجة» فكانتْ هي ستوافق دونَ تأخُّرٍ «أجَلٌ يا حُبّيَ أجَل»، وكان يمكنني، أنا الحقير الدائم، أن أقول لها، على سبيل الختام، مذكِّرًا إياها بالازدراء الذي أوقعتْه بي «ومَن هو الذَّكَرُ المُطْلَقُ لطينتكِ؟»، وهي بوفاءٍ متزايدٍ كانتْ ستُجيب «أنت يا حُبّي أنت»، وكان يمكنني أيضًا أن أُولجَ لساني في ثقب أُذنها حتّى أصِلَ به إلى الرّحم الصغير هُنالك في



أعماق جمجمتها، قائِلًا بِحميةٍ في تنخُّمٍ صائِبٍ[1] مِن الدم «إنما يَستخدم العقلَ مَن يُدخِل شهواته في صُلبه»، صابِغًا بأحمر مكثَّفٍ الكوبيةَ الرماديةَ المحمية هناك ومُجَنِّنًا نِهائيًا تلك الزهرةَ المصابة بفقر الدم، مُسْتَنْبِتًا بِمنيِّ الدسم جنسًا جديدًا لا يفرق وجوده مِن عَدَمِهِ بالنسبة لي، وفي الحقيقة لم أكن لأتمرَّدَ على هامشِ اضطرابٍ عملاقٍ إلّا لأنقذَ بعضَ اللحظات، هي التي طالما تُربكني بذهابها وإيابها، راسمةً يومًا بعد يومٍ طريقًا لخطواتي المُثَقَّلة، ولكنّي لم أقُمْ بشيءٍ مِن هذا ولم أقلْ شيئًا مِن هذا، إنَّما بَقيتُ بُرْهةً مُحدّقًا في وجهها المُبنَّج والمدهوس تحت رجليّ، فاحِصًا كالطبيب تقريبًا، ودون أي شفقةٍ، المنتج الثانوي لِسِحْري (كم مرَّةً قلتُ لَها إنَّ السُّجودَ الوَرِعَ يُوافِقُ انْتِصابَ القدّيسِ؟) بينما أستمع من شفتيها المطليتين جيدًا هذيانًا هاجسيًا يخرج متعريًا «حبيبي القذر حبيبي القذر حبيبي القذر»، ولما أحسستُ بيدها الصغيرة داخلةً مرتجفةً في قميصي كأنّها عصفور طار من كَشَّة قريبة وجاء يعشش في

---

(١) إشارة غير مباشرة الى البيت الأخير من شعر معروفٍ جدًا لشاعر برازيلي طبيعي متشائم من أواخر القرن ١٩، أوغوستو دوس آنجُس، تقول أبياته الثلاثة الأخيرة ما معناه «وإذا سبَّب جرحُك رأفةَ أحدٍ/ اقذف بالحجارة هذه اليد التي تربّت عليك/ تنخَّمْ في هذا الفم الذي يُقَبِّلُك».



شعر صدري، حينئذٍ غسلت الحقير من وجهي وقفزت قفزة القط ورأيت الارتعاب على وجهها وكأنه منديل أبيض عندما صحتُ صيحةً قويةً «إليك! خذي الثانية!» ومددتُ رِجلي كالجُندي «خذي الإبهام على الأقلّ وأولجيها بين فخذيك، فهي التي كانت تلاعب بظرك»، وشرعت أصيح «يلا يا بنت الأير، هذا الشيء الوحيد الذي أتركه لك، اقطعي هذه الإصبع قبل فوات الأوان»، وكنتُ أرى الدهشة مرسومةً على وجهها، تلك السلحفاة الحرّة والمنطلقة التي عرفتُ كيف أردّ لها ثقلَها ودرقتَها المعذِّبة، حوَّلتُ لحظةَ ردٍّ فعلها إلى احتضارٍ، أبصرتُ الرعبَ في عينيها، لا يكفي أن تَذْبَحَ الحيوان بل يتوجب أيضًا أن تُصلّي عليه بطريقةٍ صحيحةٍ عند إقامة الطقوس، «لا تحلمي بعد، لن تنالي شيئًا من جسدي إطلاقًا، لا شيء! لا شيء! أنتِ كذلك ستذهبين في داهية!» أضفتُ صارخًا ومُدركًا أنني، بهذا، أفتح في ذاكرتها حفرةً عميقةً، «لا شيء! لا شيء! إطلاقًا لا شيء من جسدي»، «أنتَ لستَ من البشر» قالتْ خارجةً من خمولها «أنتَ لستَ من البشر»، «اخرجي! اخرجي! أنتِ كذلك ستذهبين في داهية!»، «أنتَ لستَ من البشر، أنتَ مسخٌ!»، «اغربي عني! اغربي نهائيًا عن حياتي»، «أنتَ مسخٌ، أنا أخاف منك»، «إذن انتاكي يا زعراء»، «أنا أخاف»، «انتاكي»،



«أخاف أخاف»، «انتاكي»، صرختُ فرحًا تقريبًا بينما سيارتها تعرّج خلفًا حائرةً، من غير أن تجد الطريق الصحيح إلى الخارج، مع أن البوابة كانت مفتوحةً وأنا لم أُلاحظ ذلك، وهي بوجهها المطلّ من النافذة ما زالت تصيح «أنت لستَ من البشر» «أنت لستَ من البشر»، وأنا من بعيدٍ أزيد من بلبلة السيارة خالطًا بين الضجر والقهقهة لطردها «انتاكي أيتها الفاشية الصغيرة المتنكّرة» «بَنُّوتة الخنزيرة الكبيرة» «بنت الأير» «مَنِيٌّ منحطّ» «خراء عصافير»، كل هذا بتذوُّقٍ دسمٍ وثقيلٍ، ناهيك عن أن كلبي بينغو كان يُعزِّزني بوفرةٍ خلالَ الضجة نابحًا كما لم ينبح من قبل، قائمًا بحركات خطيرة، بما فيها الهجوم على الإطارات، أمّا هي فصرختْ من الشارع صرخةً نكراء: «عنّين!» قبل أن تقبض بكلّ قوة على مقود السيارة وتخرج، حاملةً معها كل المستلزمات: الخدود المحمرّة والمبلّلة، مليئة بالدموع الغزيرة والفقاعية، أُنيثة هي مثل الأغلبية، تريدني ابنًا لها، ولكنها (بتحرُّرِها) كانتْ تريدني بالأحرى ذَكَرًا لها، ولا أدري إلا أن فمي كاد ينفجر بصرخة أخيرة «انتاكي» كي أعلو الدوي العنيف لخروج سيارتها المستشيط، ولعدم رؤيتي لرِجلَي السيد أنطونيو - فقط الشجيرة تتحرّك - عبّأت جميعَ منافيخي وصحتُ «انتاكوا كلكم»، ممزّقًا صدري ومقطّعًا وريدي ومتلذِّذًا



جدًّا بشراهة فضيحتي لانتباهي إلى أن نافذةً خجولةً في الربوة قد انفتحت ثم أُغلقت بأسرع من الريح، وما زلتُ أصيح «انتاكوا» «انتاكوا» «انتاكوا» وبهذا شرعتُ أتقيأ الرئة والجيفة والكرش بينما أنظر متفاجئًا ومتأثِّرًا إلى عكسي، وشعرتُ حتّى بالرغبة في أن أتشقلب على النجيلة كالقرد (وحينها فقط لاحظتُ أنّي كنتُ قد أخطأتُ في تقديري لحجمها، هي أقلُّ من قزمة، بل بحجم الحشرة أو النملة)، لكني، بدلًا من أن أستسلم لضوضاء الاغتباط، بقيتُ واقفًا لفترة، محدِّقًا بالأرض كالمشنوق، جسدي ملتفّ بدسائس الحيلة ومقطَّع الأحشاء بسبب مفعول الحامض، ممثِّل مسلوخٌ عنه الجلد وبِعزلة تامَّة - دون جمهور ودون منصّة ودون أضواء، تحت شمسٍ وقد صارتْ عظيمة وغير مبالية - وكان عليّ أن أُجابه ضجيجًا من الدِّماء والأصوات، كان عليّ أن أُجابه كذلك حصباء أقدم، وفجأةً سقطتُ متفكِّرًا بها وهي في تخلية بيتها المنزوية في ساعة الإفطار تلك، أجل جالسة على جنبٍ لأن من عاداتها أن تجلس هكذا بعد إفطارها الزهيد، مرفقاها مثبَّتان على الطاولة، رأسها مسند على يدها، العينان ملتصقتان بالماضي، تعيد النظر خلالَ ساعات طويلة في ترمُّلها المبكر، تعيش من جديد، يومًا بعد يومٍ، أزمنة اجتماعنا القديمة، تجترّ مُنذ الفجر أطلالَ هذه



الخرافة بعد أن تفرَّجت صامتةً، السنة تلو الأُخرى، على التحطيم المدوِّي للمبادئ، وفكَّرتُ أيْضًا في الصفحة الأشدّ كثافة لكتابها في الحكمة (إلى جانب الدعوة ضد الأنانية)، هي التي لم تزل، بتشتُّت ذريتها، المؤتمنةَ الروحيةَ على ميراثٍ يسيرٍ، الدرس الذي طالما كرّرته عليّ في المناسبات النادرة التي تراني بها، الابن لا يترك بيته إلا بعد أن يتَّخِذ امرأةً زوجةً له فيبني بيتًا آخر كي ينجبا به، وكي ينجب أبناؤهما أبناء آخرين، هذه هي الحركة الفطرية للطبيعة، الإنجاب وإعالة العائلة بالعمل («الحبُّ هو السبب الوحيد للحياة»)، ومن هنا انتقلتُ مباشرةً إلى صورة لي قديمة، أبي وأُمّي جالسان، هي، ويداها على حضنها، نظرتها رؤوف، واضعةٌ رِجلًا على أُخرى، وهو بموقفٍ وقورٍ، مرتفع الصدر، شيءٌ من الفضة يزرِّر ياقتَه الخالية من ربطة العنق، فضلًا عن وجهه الذي تعود زواياه إلى كونه فلّاحًا صارمًا، الشوارب الكثَّة، النظرة الحديدية، وحولهما النتاج العديد لحضنتهما، جميعهم واقفون، معدنيون، حسنو السلوك، هنا وهناك فمٌ ملتوٍ لَبَّى عن غير رضى الطلب المزعج للمصور، فتوقفتُ عند الأسس والأعمدة والروافد المحصَّنة لتلك الدفيئة، كانت أَرجُلُنا آنذاك قصيرةً، ولكن تحت ذلك السقف كانت كلُّ خطواتنا مأمونةً، واليَدُ القوية التي تقودنا كانت تبدو لنا



دائمًا نافذةَ البصيرة، كانت صلابةُ تلك السلسلة دون شكٍّ سارّةً، اليد على اليد، المائدة الزهيدة، الملابس النظيفة، الكلام اللازم والمروّق فيه، الأظفار المقلّمة، كلّ شيء ضمن حدوده بهذا القدر، كلّ شيء يحدث تحت دائرة من النور، ويُقابَل بصرامة - دون أي رقع مظلّلة - بالمنطقة القاتمة للخطايا، نعم هو نعم، لا هو لا، فأية بقعة من الغموض كانت لا بدَّ من طرف الشيطان، إذن فبالطفولة (بطفولتي أنا)، لا شكَّ لي في ذلك، يتموضع عالم الأفكار، متممة، كاملة، لا نقاش فيها، هذه الأفكار التي أنا الآن - في اضطرابي - لا ألمحها إلا بالكاد من خلال الذكريات (مهما كان مسجَّلًا على خلفها أن «الذنب يُحسّن الإنسان، الذنب هو أحد محرّكات العالم»)، وفي الوقت ذاته كنتُ أثق بإخلاصٍ أن الكلمات - وهي مُشَبَّعَةٌ بالقيم - تحمل، كلّ واحدةٍ على حدتها، خطيئةً أصليةً في جوفها (كما أن مِن وراء كل إيماءة تختفي دومًا شهوةٌ)، وتبادر إلى ذهني أن حتّى حوض المحيط الهادي لم يكن ماؤه كافيًا لغسل المفردات (وتهدئتها)، فرأيتُني هناك، وسط ذلك الانكسار، فارغ اليدين وفاقداً أي مسندٍ أستند إليه وليس في متناولي حتى عكاز الكلام المنمّق، إنّما أدرك أنني ارتميت فجأة كالطرد، حرفيًا سقطتُ واهيًا في فناء البيت، داسًّا وجهي بين يديّ، وعيناي تنمِّلان، مرتجفًا



بحذافيري في انفجارٍ ضخم من النشيج (إنه أنينٌ أجشّ استخرجتُه مِن أعماقي)، وبقيتُ على هذه الحالة حتّى رَفَعَتْ ذراعَي أياد خشنةٌ وثقيلةٌ، السّتّ ماريانا من ناحية والسيد أنطونيو من ناحية أخرى، هو الصموت والمضطرب، وهي النشطة رغم جسمها البدين، وتحاول مسرعةً أن تلهيني بقصَّةٍ تسردها بصوت حنون فحواها أن عليَّ ألّا أُفوِّتَ المُرورَ على زريبة الأرانب «قبل العودة إلى ساو باولو»، وأنها «مذهولة» بحضنة كيتيريا، «خلَّفتِ الصبية ثلاثة عشر مولودًا في حضنتها الأُولى، ثلاثة عشر! هل يُصدَّق؟»، وذكَّرتْني أن «الأب هو بيتوكا، ذلك الأرنب الأزعر، بهذا العمر المتقدم وما زال ينجب»، «مذهولة!» كررتْ الستّ ماريانا بتهويدةٍ، ولم تُغير النبرةَ إلّا لِتوبِّخ بصوتٍ منخفضٍ زوجَها الذي لم يجتهد مثلَها في محاولتهما لرفعي من الأرض كأنَّهما يرفعان طِفلًا.



الوصول

ولمَّا وصلتُ إلى بيته في المزرعة هناك عند الكيلومتر ٢٧ مِن طريق المُرور السريع، استغربتُ كون البوابة ما زالت مفتوحةً، لأن الظهر أوشك على النهاية وقد تقدَّم مع تقدُّم الظلامِ، فلاحظتُ حالَ نزولي من السيارة جوًّا مبتسرًا متموضِعًا بين الشجيرات، وتأثّرتُ شيئًا ما بالرصانة السوداء والمنتصبة للسرو، وهناك في أسفل السلم لاحظتُ أيضًا أن باب السطيحة كان مفتوحًا، مما قد يبدو علامةً أُخرى، إضافية وتقريبًا بديهية، تدلّ على أنه في انتظاري، بيد أن تلك الوسيلة تصلح قبل كل شيء لتذكّرني أنني حتمًا آتيةٌ، حتى وإن تأخّرتُ، لعجزي عن التنازل عن مكافآت الزيارة، وأنا فعلًا طلعتُ متأنيةً إلى الصحن، وبعد أن توقفتُ لحظةً سُرعان ما دخلتُ إلى السطيحة حيث رأيتُني تحت مراقبة بينغو، الهجين المغتاظ الذي يقوم بجدارة بدوره كلبًا لحصن الدير، جالساً على خديدية الكرسي بِجُمودٍ صارمٍ يجتاح تلك الساعة الشاحبة بصفيحة عينيه، ولكني لم

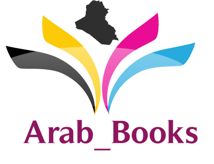


أكترث له، إذ إني، بالإضافة إلى كوني متعوِّدةً على ذلك، كنتُ قد لمحتُ ورقةً على الطاولة حيث استطعتُ أن أقرأ فيها عندما تقربتُ منها، بدون أن أمسك بها وبدون حتّى أن أنحني، «أنا في الغرفة»، رسالةٌ محبوكةٌ بأُسلوبه تمامًا - وجيزة ومجرّدة بروية، ناهيك عن أن كتابتها تُحاكي تعمّدًا خرابيش تلاميذ المدارس الابتدائية - ولكنّي سُرعان ما نسيتُ العرضية المفتعلة للرسالة ودخلتُ إلى حجرة الجلوس، مُنَظِّمَةً دون عجلٍ جدولَ الآثارِ المُبعثرةِ على الأرضية: الخُديديتان اللتان رُبَّما استعملهما منذ قليل كوسادتين، وإلى جانبهما كاسرة الضوء الحديدية، الترمس على المقعد الصغير، المنفضة في متناول يده، علاوةً على كتابٍ مرجعي مفلطح على الأرض، يُحيل ظهرُه مُباشرةً إلى مضمون ذلك المجلد الضخم، ناهيك عن الشبشب العتيق من الجلد الخام المرمي بإهمالٍ كأنه شبشب طفل، شذرات معزولة بعضها عن بعض، فأخذتُ أجمعها على مضضٍ، مكوِّنةً فُسيفساء، ثم ظللتُ واقفةً بعضَ الوقت، متأمِّلةً كثافةَ البيت الهادئ، «صومعتي»، حسب التعليق الجاف الذي أبداهُ ذات يومٍ، مازجًا بهذا الموقف الرواقي الشؤون الدينية بالشؤون الدنيوية، ومن ثمّ تجولتُ بين تلك الشظايا وجُزْتُ الحجرة كلَّها، وكفى بي أن عبرتُ الممرَّ حتّى لحقتُ بباب الغرفة الذي كان يعوم ببطء في النور الهادئ لشمعةٍ: إنه



ينام مضطجعًا على جنبه، رأسه يكاد يلمس ركبتيه المطويتين، لم تكن المرة الأولى التي يتظاهر فيها بنومةِ الطفل هذه، ولم تكن المرّة الأولى التي أستسلم بها إلى تلبية نزواته، إذ اعتراني فجأةً دوارٌ عنيفٌ مِن الحنان، مُفاجئ وغير متوقّع بحيث كدتُ لا أكبح اندفاعي بأن أتفتّح كاملةً ومبتسرةً لأستقبلَ مِن جديدٍ ذلك الجنينَ العِمْلاق.




Arab_Books

المحتويات

الوُصول ٧

في السرير ٩

اليقظة ١٥

الاستحمام ١٧

الإفطار ٢١

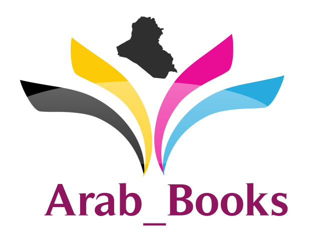
الانفجار ٢٥

الوصول ٧٥



هذا الكتاب

. . . استقبلتُ بجسدي الذي ما زال ساخنًا الهواءَ البارِدَ والرطبَ الذي أخذ يدخل الغرفة، ومع ذلك انحنيتُ على حافة النافذة متأنيًا فرأيتُ الصباح في الخارج يتمطّط بصعوبة تحت ثقل الضّباب الكثيف، كما أني تنبّهتُ إلى صُغْرَيات زهور الحديقة في الأسفل، وكأنها مجرّد مسوّدات لكونها لم يكتمل نبتها، تنقشع بصعوبة من تحت لطخات الدخان. وبينما أنا هكذا عند النافذة وعيناي الآنَ مُتَّجِهتان إلى قمَّة الربوة أمامي، إذا بِها تجيء مِن خلفي وتتشابك بي ثانيةً، مقيدةً بمهارةٍ حبلَ ذِراعيها حولَ عُنقي، ولكنّي بِرفقٍ، وباستخدامٍ خفيفٍ لمرفقيّ، استطعتُ أنْ أتقاسم معها السِّجنَ المفروضَ عليَّ، وجنبًا إلى جنبٍ أخذنا، ونحنُ متشابكان، نشبك خُطانا شيئًا فشيئًا. . .




ISBN 978-9933352912-2

